سُورَةُ المُلكِ

obeikandl.com

obeikandl.com

عرض ودراسة

تتناول هذه السورة قدرة الله وسيطرته الكاملة على الكون وخَلْقه الحياةَ والموت وإبداعه السموات السبع دون عِوَجٍ أو أَمْتٍ وما رصَّعها به من نجوم جعلها رجوماً للشياطين وما ينتظرهم وينتظر الكفار من عذاب الجحيم ، وما ينتظر المتقين الأَبرار من الغفران والنعيم ، وما أكرم الله به الإنسان فى حياته من رغد العيْش ، وما أَسبغه عليه من رحمته ، وكيف ذلَّل الهواءَ للطير يسبح فيه حَسْبما شاءَ ، وما أَغدق على الناس من أرزاق ، وما يتمادى فيه أَهل الغَيِّ من طرق الضلال ، وما يسير فيه أَهل الهدى من سُبل الرَّشاد . ويذكر الله نعمه على الناس فى الخلق واستمتاعهم بالحياة ، وكيف يستعجل المشركون العذاب وقيام الساعة ، وما كانوا يتمنونه للرسول صلى الله عليه وسلم وأَصحابه من الموت ، وما توعدهم الله به من العقاب وزوال ما هم فيه من منَنٍ إِلٰهية .

(تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِه الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) :

معنى (تَبَارَكَ) تنزَّه وتقدَّس ، وإضافة الفعل إلى الله تفيد تنزيهه فى ذاته وصفاته وأَفعاله . ولما تفيده الكلمة من معانى التعظيم والإجلال كانت لا تُسْتعمل إلا مع الله ، وكأَن معناها تعالى الله عن كل ما سواه . وقيل (تبارك) من البركة وهى كثرة الخير ، وكأَن معناها كَثُر ما يُفِيض الله من الخيرات على مخلوقاته وتزايدت مِنَنُه ونِعمُه ، كما قال تعالى فى سورة إبراهيم : (وإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوها) وكأَنه لما كانت النعم والخيرات

الإلهية تعمُّ من حيث لا يحسّ الناس مصدرها ، وبصور لا تكاد تُحْصَى ولا تُسْتَقْصى ، قيل لكل ما يزيد زيادة غير محسوسة إنه مبارك وفيه بركة . وإلى هذه البركة أو الزيادة أشار الحديث النبوى : «لا يَنْقُصُ مالٌ من صَدَقةٍ » . وقيل : بل (تبارك) من بَرَكَ الشيء إذا ثَبَتَ ، ومنه برك البعير على الماء أى ثبت ودام ، وكأن معنى (تبارك) ثبت بدون انقطاع ودام دواماً متصلا . ويمكن أن تفيد الكلمة كل هذه المعانى فالله جَلَّ شأنه تبارك أى تقدَّس وتعالى ودام فضله وكثرت خيراته. و (المُلْك) التصرف بالأمر والنهى والخلق والحياة والموت والإعطاء والمنع والإغناء والإفقار والإعزاز والإذلال إلى غير ذلك من شئون عظمة الله وآثار قدرته الإلهية وسلطانه الأزلىّ . وفَرَّقوا بين الملك والملكوت ، فقالوا الملك عالم الأجسام والملكوت عالم الأرواح . ولاحظوا أن الله حين يتحدث عن تصريفه فى عالم الملك بحسب مشيئته ينعت نفسه بالتبارك كما فى هذه الآية تصويرًا لقدسيته وعظمته وكثرة خيراته وبركاته . وحين يتحدث عن تصريفه فى عالم الملكوت بحسب مشيئته كما فى آية سورة يس : (فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ ملَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ) ينعت نفسه بالتسبيح أى التنزيه الذى يناسب المجردات عن المادة . وهو يفيد معنى التسخير اختيارًا للإنسان وطوعاً أو طبعاً لغيره كما فى آية سورة الحَشْر : (سَبَّحَ لِلّهِ ما فِى السَّمٰوَاتِ ومَا فِى ٱلْأَرْضِ) . ومن أجل ذلك كان هو الذى يناسب الملكوت ، فى حين يناسب التبارك عالم المحسوسات فى الأرض . وقوله (ٱلَّذِى بيدِهِ ٱلْمُلْكُ) كما يقال فلان بيده الأمر والنهى والحل والعقد . كناية عن القدرة على تصريف الأمور ، ولا يد ولا جارحة فى الواقع . وقال الزمخشرى : ذكر اليد مجاز عن الإحاطة بالملك

والاستيلاء عليه . ومرَّ بنا أن استخدام اليد فى مثل هذا التعبير إنما يراد به التمثيل ولا قبض ولا طى ولا يد ، كما قال تعالى فى سورة الزُّمر : (والسَّمٰوٰتُ مطْوِيَّاتٌ بِيمِينِه) ولا يمين ولا يد ، إنما هو تمثيل لعظمة الله وتصوير لبسطه سلطانه على الكون ، وكأن أزِمَّة كل ما فيه مجموعة إلى يده أو إلى يمينه . (وهُوَ علَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) قدير صفة مبالغة من القدرة ، أى هو وحده قادر على كل شىء من الأشياء يتصرف فيه حسب مشيئته وإرادته . وقال الزمخشرى : هو على كل ما لم يوجد مما يدخل تحت القدرة قدير . وبسط ذلك الفخر الرازى قائلا إن القدرة صفة مؤثرة لا بد لها من تأثير ، وهى لا تتعلق بالموجود الواجب وجوده لأنه لا يحتاج فى وجوده إلى شىء ويمتنع زواله . وهى أيضاً لا تتعلق بالموجود الممكن من حيث إيجاده لأنه موجود ولا يُراد وجوده وإلا كان تحصيلَ حاصلٍ . وبالمثل المعدوم الممتنع وجوده ، إذ لا يمكن إيجاده فلا تتعلق به القدرة . إنما تتعلق بالممكنات المعدومة توجدها حسب مشيئة الله . وكذلك يمكن أن يقال إن قدرة الله تتعلق بالممكنات الموجودة بإبقاء الوجود عليها وبتحويلها من حال إلى حال . والكون كله إنما هو ممكنات يصرِّفها الله المسيطر على الوجود جميعه بعظمته وسلطانه الأبدى . إن الكون كله مسخر بيده يصنع به ما يشاء . وباطل ما يقوله بعض المتفلسفة من أنه لا يوجد فى الكون ولا يؤثر فيه سوى الطبائع . وباطل ما يقوله الدهريون من أنه لا مؤثر فى الوجود سوى الدهر وتعاقب الليل والنهار . وذهب المجبرة من المتكلمين إلى إلغاء قدرة الإنسان وأنه لا يوجد فى الكون سوى قدرة الله ، وإلا أمكن الإنسان أن يُعارض القدرة الإلهية . والقياس منكسر ، لأنه لا تعارض بين القدرتين ، فالإنسان له قدرة صغرى يصرف

بها مملكته وحياته ، وبذلك يكون مسئولا عن أعماله وما يأْتى من الخير والشر ، والله له قدرة كبرى يصرِّف بها الكون ويضع بها فيه الأَسباب والعلل العامة . ويقول الغزالى : مملكة الله الوجود فى الدنيا والآخرة ، ومملكة المرء الخاصة به قَلْبُهُ ، وجُنْده شهوته وغضبه وهواه ، ورعيته لسانه وعيناه ويده وسائر جوارحه ، فإذا ملك القلب الرعيَّة والجند وصرَّفهما فى رضا رَبِّه سعد فى دنياه وآخرته . والله بعد ذلك له الأَمر كله ينفذ مشيئته العليا فى الكون ، ولا رادَّ لمشيئته . القدرة نعته والعظمة صفته ، وكل ما فى السموات والأَرضين فى قبضته وخاضع لإرادته .

(الَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وهُوَ العَزِيزُ الْغَفُورُ) :

قال الزمخشرى الحياة ما يصحُّ بوجوده الإحساس أَو ما يوجب كون الشىء حَيًّا . والموت عدم ذلك فيه . ومعنى خَلْق الموت والحياة إيجاد ذلك المُصَحَّح وإعدامه . وقال أَيضاً إن الحياة هى الصفة التى يستطيع الموصوف بها أَن يعلم ويقدر . والموت بذلك عنده كما هو عند المعتزلة ، ضرب من العدم لتلك الصفة الوجودية . ومعتقَدُ أَهل السنة أَنه صفة وجودية مضادة للحياة كالحرارة والبرودة ، والحياة صفة وجودية زائدة على الذات مغايرة للقدرة والعلم تمكّن الذات من الاتصاف بهما . واحتجوا لقولهم ، بالآية المذكورة لأَن الله قال : (ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ) والعدم لا يُخْلَقُ . والزمخشرى والمعتزلة معه لا يريدون بالعدم فى الموت العدم المطلق . وإنما يريدون فقدان الحياة وما يتصل بها من الإحساس والحركة ، وبذلك يصح تعلق الخلق

بالموت كتعلقه بالحياة . وتساءل المفسرون عن المراد بالحياة والموت فى الآية ولماذا تقدم الموت على الحياة وهو متأخر عنها . وتعددت إجاباتهم فمن قائل إن المراد بالموت ما سبق حياة الإنسان فى وجوده على الأرض من العدم ، فالموت أسبق لأن الأشياء كلها كانت مواتاً ثم لابستها الحياة كما جاء فى آية سورة البقرة : (وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) وكأن الحياة فى الآية هى الحياة الدنيا . وقيل : بل المراد بالموت فى الآية الموت فى الدنيا وبالحياة الحياة فى الآخرة كما جاء فى آية سورة الفُرْقان : (وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا) فإن المراد بالموت فى الآية الموت الدنيوى بدليل ذكر النشور أى البعث . وقُدِّم الموت فيها على الحياة كما قُدِّم هنا لأنه أكثر اتصالا بالسياق إذ المراد بيان قدرة الله وتخويف الإنسان من مصيره وما كُتب عليه من الموت حتى يتدبر حياته ويعمل لغده . وقال بعض المفسرين إن المراد بالموت أيامه وهى أيام الدنيا ، سميت بالموت لانقضائها ، فى حين سميت أيام الآخرة بالحياة أو أيام الحياة لدوامها وخلودها ، ومن أجل ذلك قدَّم الله ذكر الموت على ذكر الحياة ، وهو تأويل بعيد . وقيل قَدَّم الله الموت لأنه هو الذاتى فى عالم ملكه ، على حين أن الحياة عرضية ، إذ يسبقها الموت ويلحقها الموت ، وكأن صاحب هذ القول نسى أنه يكون بعد الموت الثانى الخلود فى الدار الآخرة . والأقرب أن يكون المراد بالموت الموت الدنيوى وبالحياة الدار الآخرة ، وفى الحديث : « لولا ثلاث ماطأطأ ابن آدم رأسه : الحاجة والمرض والموت وإنه مع ذلك لوثَّابٌ » . وقيل معنى (خلق) فى الآية قَدَّر ، فإن الخلق يجىء فى القرآن بمعنى التقدير كما فى آية سورة «المؤمنون» : (فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) أى المقدرين . والأولى أن يكون الخلق فى الآية بمعنى

الإيجاد ، كما مرَّ بنا ، وكأن الله يخلق الموت ثم يميته كما يخلق الحياة ثم يميتها . فكل ما على الأرض من خلقه ، وكما منحه الحياة سيمنحه الموت ، حتى الموت نفسه ، وكأن هذه الآية هى التى ألهمت عِمْران بن حِطّان الشاعر الأموى أن يقول :

لا يُعْجِزُ الموتَ شَيءٌ دون خالقهِ والموتُ فانٍ إذا ما ناله الأَجَلُ

فالموت كالحياة مخلوق ، وله أجل ، ينتهى عنده ويَفْنَى كما تَفْنَى الحياة . ويقول تعالى إنه خلق الحياة والموت (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) ، وظاهر الآية قد يُفْهَمُ منه ما ذهب إليه المعتزلة من أن أفعال الله معلَّلة بمصالح الناس ، وذهب أهل السنة إلى أن اللام فى الآية ليست لام تعليل ، إنما هى لام العاقبة . ومعروف أن البلاء الاختبار ، وهو فى الآية ليس على حقيقته ، لأن الله لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، وإنما هو بمعنى العلم أى أن الناس يظهر منهم ما يطابق علم الله فى الغيب ، وكأنما يعاملهم الله معاملة من يختبرهم ليرى أيهم أحسن عملا فى حياته ، حتى يجازيهم على أعمالهم بحسب تفاوتها من الخير والشر ومن الإيمان والكفر . وكأن العمل فى الآية لا يراد به عمل الجوارح وحدها بل ما هو أعم ليشمل عمل العقل والقلب ، ويشهد لذلك ما يُرْوَى من أن الرسول عليه السلام تلا الآية ، ثم فسَّرها بقوله : « قال الله تعالى : أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع فى طاعة الله » . يقول الزمخشرى تعليقاً على الحديث : يعنى أيكم أتم عقلا عن الله وفهماً لأغراضه . وقيل أحسن الأعمال ما كان أخلصَ بأن يكون لوجه الله خالصاً ، وأصوبَ بأن يكون موافقاً للسنة أى وارداً على الصورة التى أرادها الشارع . فالعمل إذا كان خالصاً لوجه الله ولم يكن صواباً لم يُقْبَلْ ، ولذلك

قال الرسول صلى الله عليه وسلم لأعرابي رآه لا يحسن صلاته ولا يطمئن فيها : «قُمْ صَلِّ فإنك لم تُصَلِّ» . وكذلك إذا كان العمل صواباً ولم يكن خالصاً لوجه الله لم يقبل ، لأنه إنما يكون رياءً ونفاقاً فيذهب هباء . وحسنُ العمل إنما مردُّه ومرجعه إلى الشرع فما دعاه حَسناً فهو حسن ، وما دعاه قبيحاً فهو قبيح ، والأعمال الحسنة هى الأعمال التى أكثر القرآن من بيانها ، سواء ما اتصل بعبادة الله أو بسلوك الشخص أو بنفعه لغيره ، وتسمى أعمالا خَيِّرَة أو صالحة .

وقيل فى تفسير (أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) أى أحسن أخذًا من حياته لموته ومن دنياه لآخرته ، وسُئل الرسول عليه السلام : أىّ المؤمنين أكْيَسُ (أعقل) ؟ قال : أكثرهم للموت ذكرًا وأحسنهم له استعدادًا . والاستعداد إنما يكون بالعبادات والأعمال الطيبات . (وَهُوَ الْعَزِيزُ الغَفُورُ) العزيز ذو العِزَّة القاهرة والقدرة العظيمة ، من عَزَّ الشخص إذا غلب وسيطر ، فهو المسيطر الذى لا يُقْهر ، والذى إذا سلَّط انتقامه على المذنبين لم يدفعه عنهم دافع . إنه الغالب على كل شىء ، لا يتأبَّى عليه شىء ، ولا يعارضه أو يمانعه شىء . وقيل العزيز من عزَّ عزازة بمعنى ندر وقلَّ ، فهو عديم المثل فى القدرة والسلطان وغيرهما من صفاته الربانية (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) فى الوجود . وقال الغزالى : العزيز هو الخطير الذى يقلُّ وجود مثله وتشتد الحاجة إليه ويصعب الوصول إليه . . فكم من شىء يقل وجوده ، ولكن إذا لم يعظم خطره ولم يكثر نفعه لم يُسَمَّ عزيزًا ، وكم من شىء يعظم خَطَره ويكثر نَفْعه ولا يوجد نظيره ولكن إذا لم يصعب الوصول إليه لم يُسَمَّ عزيزًا كالشمس مثلا ، فإنها لا نظير لها ونفعها عظيم والحاجة إليها شديدة ولكن لا توصف بالعزَّة ، إنما العزيز الله وحده الذى يستحيل وجود مثله والذى يحتاج إليه كل موجود فى وجوده وبقائه وصفاته .

ويقول جَلَّ شأنه فى سورة فاطر : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعاً) ويقول فى سورة المنافقين : (وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) فهو صاحب العِزَّة والغلبة والقدرة . ولن يعزَّ أحدٌ إلا إذا أكسبه الله العزة ، وقد وهبها لرسوله وللمؤمنين ، أما للرسول فبما منحه من الرسالة النبوية وتعاليمها التى تهدى الناس إلى السعادة فى الدنيا والآخرة ، وأما المؤمنون فبما أعطاهم من غلبة ونصر على المشركين وبما أعزَّهم به من طاعة له واستهانة بالشهوات وملذات الدنيا الفانية ، وبذلك كانوا ذوى قدر ومنزلة وعزة فى الناس عِزَّة لا تدانيها عِزَّة . ولما ذكر الله عزته وقهره وما يدل عليه ذلك من أنه منزل عقابه وانتقامه بالعاصين تلا ذلك بذكر غفرانه وأنه يقبل التوبة من العاصين . ودائماً يُرْدف الله عقابه بذكر ثوابه ليلفت الكافرين إلى الصراط المستقيم ، بل إنه ليكثر من ذكره قبولَ التوبة والعفو والمغفرة ، وكأنه يفتح أمام الناس جميعاً الأبواب كى يتخلصوا من آثامهم حتى ليقول فى سورة الزُّمَر : (إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعاً) وذنب واحد لا يغفره هو الشرك به ، أما بعد ذلك فكما قال فى سورة غافر عن نفسه : (غَافِرِ ٱلذَّنْبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ) ، ويصور ذلك الحديث القدسى أروع تصوير ، إذ يحكى الرسول عليه السلام عن ربه : «مَنْ أتانى يَمْشى أتيته هَرْوَلَةً» . وواضح أن الآية بما ذكر فيها من خلق الموت والحياة توضيح لقدرة الله المذكورة فى الآية السابقة لها ، وقد تضمنت أن الله لم يخلق الناس دون غاية رفيعة تتصل بخلقهم ، فقد أوجدهم ليتَّبعوا هداه ، وكتب عليهم الحياة والموت والنشور ليتابعوا حياة باقية يتفاوت الجزاء فيها بتفاوت أعمال الإنسان فى دنياه . ويؤكد الله هذا المعنى فى آيات مختلفات كقوله فى سورة « المؤمنون » : (أَفَحَسِبْتُمْ

أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) وقوله فى سورة القيامة : (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى) ؛ فالناس لم يخلقوا عَبَثاً ، ولن يترك الله الإنسان مهملا ، فقد أكرمه بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين ، حتى يرتقوا بحياته فى دنياه وآخرته ، بما يكلَّف - وينهض - به من أعمال تميِّز المتقين من المفسدين وتجعل لكل منهم حظه وجزاءه فى الدار الآخرة حيث يجازَى كل نفس بما عملت وقدَّمت .

(الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوٰتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ) :

للمفسرين كلام كثير فى تصور خَلْق الله السموات السبع والأرضين السبع ، وهل خُلقت السموات أولا أو الأرضون أولا ، أو هل خُلِقَ الدخان أولا لقوله تعالى فى سورة فُصِّلَتْ : (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وهِيَ دُخانٌ فَقَالَ لَهَا وللأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنا طَائِعِينَ) وماذا يُقْصَدُ بالدخان وهل هو السَّديم عند الجغرافيين والفلكيين المحدثين . وفى رأيى أن كلام القدماء والمعاصرين فى هذه الجوانب الفلكية مما يخرج عن الغاية المقصود بها الذكر الحكيم . فالله حين يذكر خلق السموات والأفلاك والكواكب والأرض وما عليها لا يقصد إلى غايات علمية ، إنما يقصد إلى العظة ، وأن يتدبر الإنسان الكون من حوله ليستقر فى ضميره أنه لا بد من ذات عليَّة أو من إله قادر يرفع السماء أو السموات كما يبسط الأرض والأرضين .

فهذه السموات المليئة بالمجموعات الكثيرة من الكواكب كلما اكتشف منها الإنسان مجموعة ، وكلما توغل فى دراسة مجموعتنا الشمسية ، عرف

عظمة الكون وعظمة خالقه . وما إحصاء القرآن للسموات بأنها سبع إلا رمز لكثرة سُدُمها ونجومها ومجرّاتها ومن الخطإ محاولة التعرف على السبع لأن هذا من عالم الغيب الذى لا يدرى الإنسان حقيقة أمره ، لأنه يخرج عن قدرته ومدى عقله وعلمه . وحقًّا يحاول العلماء جاهدين أن يتعرفوا على خفايا السموات وأسرارها ، بواسطة مراصدهم الفلكية وما تحاول أن تسجل من حركات الكواكب ، ولكن ما عرفوه قليل جدًّا على كثرة ما يحاولون من التسمع . وقَرْن ذلك بآيات القرآن الكونية بُعْدٌ به عن مداره الدينى وغاياته العليا ، ويكفى أن نعرف أنه يلفت الإنسان بقوة إلى أن هذا الكون العظيم لا بد له من مدبر يقوم على خلقه وبَثَّ ما يكفل له البقاء من أنظمة وقوانين حتى يسير فى مجراه إلى الغاية التى أرادها له خالقه ومدبره ومبدعه ، وحسبنا أن ننظر ونتأمل ونتفكر فى ملكوت السموات والأرض ، أما أن نحاول التعرف من القرآن على كيفية خلق الله الوجود وعلى ما أشار إليه من سبع سموات ومن الأرض مثلهن ، فذلك يخرج عن غاية القرآن نفسه بما ذكره من هذه الجوانب وما يماثلها ويجب أن نؤمن بما يقول وأنه يطلب إلينا أن نفزع إلى عقلنا وأن نستخدمه استخداماً منطقيًّا صحيحاً لنعرف أن للكون مبدعاً لم يخلقه باطلا كما قال فى سورة ص : (وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاءَ وَٱلأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً) فالكون لم يُخْلَقْ عبثاً ، إنما خلقه الله لغاية واضحة ، يلحقه بعدها الفناء والبعث والمعاد . وما من شك فى أن خَلْق هذا الكون الكبير يدل على قدرة عظيمة من ورائه هى قدرة الله التى لا تحدها حدود . ويبدئ القرآن ويعيد فى تجسيم هذه القدرة ، تارة يدل عليها بأن الله يحفظ السموات والأرض ويَصُونهما عن أن يحدث فيهما اضطراب كونىٌّ يأتى عليهما ، يقول تبارك وتعالى

فى سورة فاطر : (إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ) فهو الذى يمسك بهما دون عُمُدٍ أو أى آلاتٍ سوى قدرته التى تقبض عليهما وتسخِّرهما حسب مشيئته ، وفى ذلك دليل كونى قوى على وجود الله وقدرته الخارقة . وتارة يدل القرآن على قدرة الله بأن لكل كوكب حركته المقدرة بقدر معين من السرعة والبطء لكى يتم للعالم نظامه الذى أراده الله ، وفى ذلك يقول فى سورة يس : (وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ لَا ٱلشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) ، فالشمس لا تزال جارية فى الكون حتى انتهاء أمَد الدنيا ، والقمر يجرى مثلها وتختلف صورته من ليلة إلى ليلة حتى يصبح كعرجون النخل أو أصل عِذْقه الأصفر الذى يشبه الهلال ، ولكل منهما مداره وما يتبعه من ليل أو نهار . مسيرة موقوتة مقدرة لا خَلل فيها ولا اضطراب ، بل نظام محكم أدق إحكام . وكأنه يوزن بميزان لا تفوته ذرة مهما صغرت وضؤلت ، وهو ما سجله الله مرارًا فى خلقه كلَّ شىء فى الكون إذ يقول فى سورة الفرقان : (ٱلَّذِى لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) ويقول فى سورة القمر : (إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) فكل شىء خُلِقَ بمقدار معين كأنما يوزن وزناً ، يوزن القمر وتوزن الشمس ويوزن كل ما فى الوجود وتيسوَّى صورته وصفاته وكل ما يتصل به من نظام فى نفسه أو مع غيره . وهى قوة خارقة ، بل هو إله قدير بسط سلطانه على الكون وأقامه بمقتضى حكمته الباهرة التى بثها فيه وفى مخلوقاته . وذكر

الزمخشرى فى كلمة (طِباقاً) ثلاثة آراء : أن تكون طبقاً على طبقٍ أو طبقة على طبقة ، أو أن تكون ذات طباق أوطبقات ، أوأنها طوبقت طباقاً ، والمراد واضح وهو أن الله خلق السموات طباقاً يطابق بعضها بَعْضاً بلا مماسة ولا عماد تعتمد عليه سوى قدرة الله التى تمسكها أن تزول . ويقول جلَّ ثناؤه : (مَا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ) والتفاوت عدم التناسب فى الخلقة والتكوين ، والمعنى ما ترى فى خلق الرحمن أو فى خلق الله من اعوجاج أو اضطراب وإن اختلفت صوره وهيئاته ، بل تراه مستقيماً مستوياً ليس فيه أى تفاوت ولا تباين . والحديث عن السموات خاصة ، فما ترى فيها من أى عيب أو أى خلل فى الخَلْق ، بل تراها متقنة محكمة .

(فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ) :

يقول جَلَّ شأنه : ارْدُدْ طَرْفك إلى السماء وقَلِّب النظر فيها حتى لا تبقى عندك شبهة فى رؤيتها بعينيك فلن ترى فيها فطورًا . والفطور الشقوق جمع فِطْر ، فليس فيها صدوع ولا اعوجاج ولا اضطراب ، بل استقامة واستواء وانتظام دون أى خَلَلٍ أو وهَنٍ ، وإلا ما انتظم سير الأفلاك فيها والكواكب والنجوم ولحدثت تصدعات لا حصر لها فى الكون . وارجع البصر كرَّتين ، والمراد مرارًا كثيرة ، فلن يرجع إليك بصرك بما تلتمسه من رؤية الخلل والتصدع ، بل سينقلب إليك وسيعود (خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ) وخاسِئاً إما من خَسَأْت الكلب إذا أبعدته وطردته أى أن البصر يعود ذليلا صاغرًا كأنه يُطْرَدُ عما يريد صاحبه طَرْدًا بالصغار والذلة والهوان والانقباض ،

وإما من قولهم خَسَأَ بصره خَسْئاً وخُسُوءًا إذا حار ، وهو تحير من العجب والدهشة إزاء صُنْع الكون العجيب . وحَسِير : كليل قد بلغ الغاية فى الإعياء لطول المراجعة وكثرة التصفح للبحث عن رؤية الخلل ومطالعة التصدع . والله جَلَّ ثناؤه إنما يصور حسن انتظام السَّمٰواتِ ، فقد خلقها بقدرته التى لا تبلغها قدرة ، قدرته الخارقة التى جعلتها يطابق بعضها بعضاً ويناسبه ويلائمه ، دون أن يكون هناك جزء محتاج إلى تسوية أو تعديل ، فالسموات بجميع أجزائها قد تناهت فى نظامها الكلى . ولا يُراد بالفطور الفتوق والصدوع الحسية فى السماء بل يراد الخلل العام فى الخلق . وقد سماه خلق الرحمن إشارة إلى فضله العميم فيه على الإنسان، فهو لا يصور قدرته التى لا حد لها فحسب ، بل يصور أيضاً رحمته بالعالمين إذ رتَّب للناس الكواكب المتفرقة فى طبقات السماء بحيث تؤدى لهم المنافع التى تعود عليهم بالخيرات والبركات . وليس هناك كوكب إلا وُضع مكانه رحمة وتفضلا على الناس ، وانظر فى ملكوت السموات وَرَدِّدِ الطرف فيه مرة بعد مرة وأَشْرِكْ قلبك وفكرك ، فإن دوام النظر وطوله وتكراره سيؤدى بك إلى أن تتجول بعقلك ووجدانك فى عالم السموات لترى ما يجرى فيه من نظام كونى على وجه دقيق منتهى الدقة ، وجه يدل على أن وراءه إلهاً قادرًا رحيماً حكيماً لا يخلق شيئاً إلا سدَّده وقوَّمه وأحكم نظامه .

(وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَاءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ)

لما بيَّن الله جلَّ ثناوه إحكامه خلق السماء دون أى خلل بل فى استواء

واتساق دقيقين أعقب ذلك ببيان أنه خلقها فى صورة بديعة كلها جمال وبهاء . والتزيين : الزخرف والتنميق . و (السماء الدنيا) أى السماء القريبة المكشوفة للأعين ، وليس المقصود طبقة من السماء بعينها هى أقرب طبقاتها إلى الأرض ، وإنما المقصود السماء البيِّنة لأعيننا التى نرى فيها الكواكب والنجوم سواء كان مكانها قريباً من الأرض أو بعيدًا . والمصابيح جمع مصباح وهو السراج ، وسميت الكواكب مصابيح لأنها تضىء الليل ، ويدخل فيها القمر لأنه أعظم الكواكب إضاءة فى الليل وجُنْح الظلام ، وقد قال الله فى سورة الأنبياء : (وَجعلْنَا ٱلسَّمَاءَ سقْفًا مَحفُوظاً) فهى سقفٌ للأرض كسقف البيت تضىء فيه الكواكب وتنيره ليلا . وإذا كان الله جَلَّ شأنه زَيَّن لنا سقف دنيانا فينبغى أن نزيِّن له ولأنفسنا سقف مساجده وبيوت عبادته بالمصابيح والقناديل . ويُروى أن مسجد الرسول عليه السلام كان يوقد إذا جاءت العشاء بسعف النَّخْلِ ، ثم أُوقِد بقناديل عُلِّقت بسواريه وأضيئت ، ثم أكثرها عمر رضى الله عنه ، فلما رآها علىّ وهى تُزْهر فى المسجد قال له : نَوَّرتَ مسجدنا نَوَّرَ الله قَبرَكَ يا بنَ الخَطَّاب . والشياطين عصاة الجنِّ كما مرَّ بنا فى سورة الرحمن وهم يُغْوُون الناس بهمزاتهم أو وساوسهم وما ينفثون فى صدورهم من نوازع الشر ودوافعه وقد صور القرآن ذلك على لسان إبليس فى قوله : (لأَقْعُدَنَّ لهم صِرَاطَكَ المُسْتَقِيمَ ثُمَّ لآتِيَنَّهم من بَيْنِ أَيْدِيهِم ومِنْ خَلْفِهِم وعَنْ أَيْمَانِهِم وعَنْ شَمَائِلِهِم) . والرجوم فى الآية جمع رَجْم وهو ما يُرجم به الشيطان ويُرمَى من الشُّعَل المتساقطة من الكواكب كما جاء فى سورة الحِجْر : (وَلَقَدْ جَعلْنَا فِى ٱلسَّمَاءِ بُرُوجاً وزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِين وحَفِظْنَاها مِنْ كُلِّ شَيطانٍ رَجِيمٍ إلاَّ مَنِ ٱسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ) ، وفى سورة الصَّافَّات : (إنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الكَوَاكِبِ وحِفْظًا مِنْ كُلِّ

شَيْطَانٍ مارِدٍ لاَ يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ واصِبٌ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثاقِبٌ)، وكأن الرجيم فى آية الحِجْر هو الذى يتبعه الشهاب ويُرْجَم به ويُرْمَى بناره، وآية الصَّافَّات تسجل أنهم لا يستطيعون النفوذ إلى السماء أو إلى الملإ الأعلى لاستماع الغيب، بل يقذفون أو يرمون بالشهب من كل جانب فيتولون مدحورين أو مطرودين ولهم عذاب واصب أليم، ومنْ خطف منهم شيئاً تبعه شهاب ثاقب لا يفوته. وجاء فى سورة الجنِّ على لسانهم وحكايتهم عن السماء: (وأَنَّا كُنَّا نَقعدُ مِنْهَا مقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَدًا). وذكرُ مقاعد السمع فى الآية وعدم الاستماع إلى الملإ الأعلى فى آية الصافات واستراق السمع فى آية الحِجْر كل ذلك جعل بعض المفسرين يأخذ بما قد يتبادر لأول وهلة من الآيات من أن الشياطين كانت تستمع إلى الملإ الأعلى، وتتخذ لنفسها مقاعد هناك، وتسترق السمع أو الغيب، وقالوا إنها مُنعت من ذلك نهائيًّا مع بعثة الرسول عليه السلام. والآيات جميعها مجاز عن سلطان الله المبسوط على السماء، بحيث لا يستطيع الشياطين أن يصلوا إليها، نفياً لما كان كهنتهم يزعمون لهم من اتصالهم بهم، وأنهم ينقلون إليهم ما كتب فى ألواح الغد مما سُجِّل فى الملإ الأعلى، إذ كان كل كاهن يزعم أن له تابعاً من الشياطين أو من الجن يسخِّره فى نقل الغيب له من السماء، فنفى القرآن ذلك ودحضه دحضاً مُبيناً، إذ قال إن الشياطين لا تستطيع أن تصل إلى هذا الملأ دون أن تحترق وتصبح رمادًا. وقد أنكر القرآن إنكارًا جازماً استماع الشياطين لما فى السماء ونقلها ما فيها من غيب إذ جاء فى سورة الشعراء عنهم: (إِنَّهُمْ عَنِ السَّمعِ لَمَعْزُولُونَ) أى ممنوعون منعاً باتًّا. وعلى نحو ما أنكر استراقهم السمع أنكر استراقهم الغيب

فى آية سورة الكهف : (ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرضِ وَلَا خلق أَنْفُسِهِمْ) فالله لم يشهدهم خَلْقه السموات ولا ما فيها من مغيبات يزعمها الكهنة . ويكرر الله فى القرآن أنه وحده (عَلَّامُ الْغُيُوبِ) وأنه لا يعلم غَيب السموات والأَرض سواه ، يقول فى سورة النَّمْل : (قُلْ لاَ يعْلَمُ منْ فى السَّمٰوَاتِ والْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا الله) واستثنى فى سورة الجن الرسل ذاكرا أنهم وحدهم يخصُّهم بالاطلاع على الغيب إذ يقول : (عَالِمُ الغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسولٍ) فالرُّسُل المُرْتَضَوْن وحدهم يُطْلعهم على الغيب ولا يطلع عليه أحدًا من الجن والإنس فضلا عن الشياطين. وفى ذلك إبطال صريح للكهانة والتنجيم وكل ما يتصل بالتنبُّؤ بالغيب مما لا يعلمه إلا الله وحده . ويذكر أبوحيان عن بعض المفسرين قولا ضعيفا يذهب إلى أن المراد بالشياطين فى الآية شياطين الإنس من الكهنة والمنجمين ، الذين كانوا ينسبون إلى النجوم أشياء على جهة الظن من جهالهم والتمويه والاختلاق من أذكيائهم مدعين أن للنجوم تأثيرا فى سعادة الإنسان وشقائه وكأن الشياطين فى القرآن أحياناً يُرَادُ بهم مَرَدة الجنِّ كما فى آية سورة الصَّافَّات : (أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّياطِينِ) وإغواءاتهم ، وأحياناً يراد بهم مَرَدَة الإنس وكهنتهم ورءوس العاصين كما جاء فى سورة البقرة عن المنافقين إذ يقول الله جلَّ ثناؤه : (وإِذَا لَقُوا الَّذِين آمنُوا قَالُوا آمنَّا وإِذَا خَلَوْا إِلى شَياطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا معكُمْ إِنَّما نحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ). وقد أدخل فى شياطين الإنس ومردتهم بعض الباطنية أو من يشبههم ـ كما قال أبوحيان ـ ما جاء فى الذكر الحكيم عن جنِّ سليمان عليه السلام وشياطينه فى مثل آيات سورة صٓ : (فَسخَّرْنَا لَهُ الرِّيح تَجْرِى بِأَمرِهِ رُخَاءً حَيثُ أَصاب وَالشَّيَاطِينَ كلَّ بَنَّاءٍ وغَوَّاصٍ وآخَرِين مُقَرَّنِين

فى الْأَصْفَادِ) ، وكأنما الذى جعلهم يظنون أن المراد بالشياطين شياطين الإنس وصفهم فى الآيات بأنهم كانوا بنَّائين بنَوا لسليمان القصور المشيدة ، وغَوَّاصين له فى البحار ، وأن منهم من عصوه فأوثقهم فى السلاسل والأصفاد . وروى أبوحيان عنهم أيضاً أنهم قالوا إن تسخير الريح لسليمان أنه راض الخيل فأصبحت كالريح المسرعة تجرى رخاء لينة بعساكره وجنوده . يقول أبو حيان : وهى تأويلات فاسدة تخرج عما يقوله المفسرون فى هذه الآيات وتعجيز للقدرة الإلهية إذ تنكر المعجزة الخاصة لسليمان . ونفس آيات سورة صٓ الآنفة الذكر إنما جاءت تعقيباً لما جاء على لسانه من قوله : (قَالَ رَبِّ اغفِرْ لى وَهبْ لى مُلْكاً لا يَنْبَغِى لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِى) ويصور الله جَلَّ شأنه فى الآيات أنه قبل دعاءه فسخر له ما لم يسخِّره لأحد من قبله ، سخر له الريح وسخر له الشياطين ، وجعل له سلطاناً على مردتهم حتى قيَّدهم فى سلاسل الحديد وأغلاله . ومن حمل الشياطين فى السورة التى نحن بصددها على شياطين الإنس من الكهنة والمنجمين قال إن كلمة (رجوماً) جمع رجْم بمعنى الظن كما قال تعالى فى سورة الكَهْف : (رَجماً بِالْغَيْبِ) أى ظَنًّا ، وكأن الرجوم تنبؤات المنجمين والكهنة . وقد نَصَّ الألوسى وكثيرون غيره على أن تفسير الشياطين فى الآية بشياطين الإنس من المنجمين لا يساعده المقام وأن المراد حقًّا شياطين الجن وما يقذفون به من شعل النجوم . وإذا كان الله تبارك وتعالى ذكر فى هذه الآية أن الكواكب زُيِّنَت بها السماء ، وأنها أشبه بمصابيح للمعانها ولما ترسل من الأضواء وبخاصة القمر مصباحها الكبير فإنه ذكر فى آيات أخرى أنه جعلها علامات يُهْتَدَى بها فى ظلمات البَرِّ والبحْرِ كما قال فى سورة النَّحْل : (وَعلاَمَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)

وقد برَّأها الله مما كان يدعيه العرب لمواقعها ، وهى التى كانوا يسمُّونها بالأنواء ، من التأثير فى انعقاد السحب ونزول الأمطار ، وفى ذلك نزلت آيات سورة الواقعة : (فَلاَ أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ) إلى قوله تعالى: (وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ) أى تجعلون شكر رزقكم ومايُنزل بكمْ من الأمطار أنكُمْ تُكَذِّبون أن الله مُنْزِلها وتنسبونها إلى مواقعها وأنْوائها . وعن ابن عباس فى سبب نزول هذه الآيات أن الناس مطِروا على عهد الرسول عليه السلام ، فقال قوم مُطِرنا برحمة الله ، وقال آخرون مُطِرنا بِنَوْء كذا ، فقال الرسول شَكَر قوم وكَفَر قوم ، ونزلت الآيات نَهْيًا عن الإيمان بأنواء النجوم وأن لها تأثيرًا فى الأمطار ، إنما التأثير كله لله منشئ الأمطار والسحب بفضله ورحمته . ويقول جَلَّ شأنه متوعدًا شياطين الجن أو المنجمين وأضرابهم من الكهنة وغير الكهنة : (وَأَعْتَدْنا لَهُمْ عَذَاب السَّعِيرِ) أى أعددنا لهم (عَذَاب السَّعِيرِ) وهى النار الموقدة ، ويقال إن السعير هى الدركة الرابعة من دركات النار السبع التى مرَّتْ بنا فى ص ٩٩ ، وهى جهنم ثم اللَّظَى ثم الحُطَمة ثم السَّعِير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية . واحتج أهل السنة على المعتزلة بهذه الآية فيما ذهبوا إليه من أن النار مخلوقة الآن ، وأن خلقها لن يحدث فى الآخرة ، إذ هو حادث فعلا لأن قول الله (وأعتدنا) إخبار عن الماضى .

(وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

الكفر فى اللغة الستر والتغطية ومنه كَفَر السحابُ السماء إذا غَطَّاها ، وفى الشريعة الكفر إنكار ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من أصول العقيدة وهى الإيمان بالله وملائكته وكتُبه ورسله واليوم الآخر ومن الأعمال

الصالحات سواء ما اتصل منها بعبادة الله أو ما اتصل بالسلوك الخلقى أو ما اتصل بمصالح الجماعة . واستخدم القرآن الكلمة ومشتقاتها فى أربعة معانٍ ، أولها وهو أكثرها دوراناً فى آيات الذكر الحكيم المعنى الاصطلاحى فى الشريعة كقوله تعالى فى سورة البقرة : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لايُؤْمِنُونَ) . والمعنى الثانى جحود النعمة كما جاء على لسان سليمان عليه السلام فى سورة النَّمْل : (هٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى لِيبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فإنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ومنْ كَفَر فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ) . والمعنى الثالث نقيض الشكر كما قال تعالى فى سورة البقرة : (وَاشْكُرُوا لِى وَلاَ تَكْفُرُونِ) . والمعنى الرابع التَّبَرُّؤُ كما جاء فى آية سورة العَنْكَبُوت : (ثمَّ يَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ويلْعَنُ بعْضُكُمْ بعْضاً) . وقيل الكفر بالشريعة يندرج فيه أربعة أنواع : النوع الأول وهو أشنعها إنكار الله وشرائعه ويدخل فيه الشرك العظيم به كما جاء فى سورة لُقْمان : (لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) وفيه يقول جَلَّ شأنه فى سورة النِّساء : (إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ويغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ومَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً) وقال الطبرى : قد أبانتْ هذه الآية أن كل صاحب كبيرة فى مشيئة الله تعالى إن شاء عفا عن ذنبه وإن شاء عاقبه عليه ما لم تكن كبيرته شِركاً بربِّه . والنوع الثانى كُفر الجحود بالله وهو معرفته دون الإقرار به كمعرفة إبليس لربه ورفضه لأمره أن يسجد لآدم ثم ما كان من إغوائه إياه وذريته عاصياً ربه جاحدًا لأنعمه ، وكما حكى الله عن اليهود فى جحودهم القرآن لما جاءهم مصدقاً لما معهم متفقاً مع ما يؤمنون به ، وكانوا قبل مجيئه يستفتحون به ويستنصرون قائلين لعل الله يأتى بالفتح المبين أو بأمر من

عنده فننتصر على الكافرين ، فلما جاءهم ما طال انتظارهم إياه كفروا به كما قال جَلَّ ثناؤه فى سورة البقرة واصفاً إياهم : (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصدِّقٌ لِمَا معَهُمْ وكَانُوا مِنْ قَبْلُ يسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِين كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ على الكَافِرِينَ) . والنوع الثالث كفر العناد ، وهو معرفة الله المترددة باللسان والقلب ، مما يجعل الإنسان مذبذباً ، مرة مؤْمناً ومرة كافرًا كما جاء فى آية سورة النِّساءِ : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيهُمْ سَبِيلاً) . والنوع الرابع كفر النفاق وهو الإنكار بالقلب والإقرار باللسان ، وهو كفر المنافقين الذين يؤمنون بأَفواههم ولا تؤْمن قلوبهم ، وهم أَخبث الكفرة وأَبغضهم إلى الله لأَنهم يموِّهون الكفر حتى يَغُرُّوا المؤمنين ويخدعوهم ، ولذلك توعدهم الله الدَّرْك الأَسفل من النار . والله يتوعَّد فى الآية الكريمة كل أَصحاب الأَنواع السالفة من الكفر منافقين وغير منافقين بعذاب جهنم ، فقد أَصمُّوا آذانهم عن الرسول ورسالته الكريمة ومضوا فى غيِّهم يعْمَهُونَ ، فاستحقوا بذلك ما توعدهم الله به من عذاب جهنم الأَبدى الذى لا يزول ولا يحول (وبِئْسَ المَصِيرُ) وبئستِ العاقبة .

(إِذَا أُلْقُوا فيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ. كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ) :

صفات متوالية لجهنم . والإلقاء : الطرح والرمى كما يطرح الحطب فى النار العظيمة ويُرْمَى به كما قال تعالى فى سورة الأَنبياء للكفَّار : (إِنَّكُمْ

وما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وارِدُونَ) فهم حَصبُها وحَطَبُها ووقودها يُرْمَوْنَ فيها على وجوههم . والشَّهِيق : ردُّ النَّفسِ المديد ، مأخوذ من قولهم جبل شاهق لتناهيه فى الطول والارتفاع ، ويقابله الزَّفير وهو إخراج النفس . وقيل الشهيق فى الصدر والزفير فى الحلق وقيل (شهيقاً) فى الآية أى صوتاً مديدًا . وقيل تشهق جهنم عند إلقاء الكفار فيها شهقة الفرس للشعير ثم تزفر زفرة مخيفة . وقال قوم (لها) أى فيها ، والشهيق إنما هو شهيق الكفار المعذبين كما جاء فى سورة هود : (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وشَهِيقٌ) . وقيل الشهيق شهيق مَنْ سيُلْقَوْنَ فيها حين يدخلونها . والأولى أن يكون الشهيق – كما يدل ظاهر الآية – للنار ، سُمِّى صَوْتها المنكر شهيقاً من باب الاستعارة . (وهِى تَفُورُ) أى تَغْلى بهم غليان القِدْر من شدة اللهب ، وكأنهم يموجون فيها كما يموج الحب القليل فى الماء المغلىِّ الكثير ، فلا يزالون هابطين صاعدين لا يستقرون . (تكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ) تميَّز أصلها تتميَّز حُذفت إحدى التاءين ، ومعناها تتفرق وتتقطع من شدة الغيظ على أعداء الله ، قال الزمخشرى : جُعلتِ النار كالمغتاظة على الكفار لشدة غليانها بهم ، وهم يقولون : فلان يتميز غَيْظاً ، ويتقصَّف غضباً ، وغضب فطارت منه شقة فى الأرض وشقة فى السماء ، إذا وصفوه بالإفراط فى الغضب أو الغيظ . والغيظ أشد أحوال الغضب ، ويقال : يكاد فلان ينشق من غيظه إذا أفرط فيه ، وكأن المعنى تكاد جهنم تتفرق أجزاؤها وتتمزَّقُ إرَباً وقطعاً من شدة الغيظ والغضب العنيف ، شُبِّه اشتعال النار فى الكفار وإحراقها إياهم باغتياظ الشخص على غيره غيظاً شديدًا حتى ليريد أن يمزق أعضاءه ، والمغتاظ عادة يغلى دمه حتى ليكاد هو نفسه يتمزق .

وقيل : نُسب التميُّز غيظاً إلى النار ، والمراد زبانيتها فهم الذين يأخذهم الغيظ على أعداء الله ، وهو تأويل بعيد . والفوج الجماعة من الناس والمراد هنا الجماعة من الكفار . وخزنة جهنم مالك وزَبانيتها ، وأصل كلمة الزَّبانية الشُّرَط جمع شُرْطِيّ ، سُمُّوا بذلك لدفعهم الكفار فى جهنم بشدة وبطش وقهر ، وهم ملائكة العذاب ، وقد وصفهم الله فى سورة التحريم بقوله : (مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ) أى غلاظ القلوب قساة الأفئدة يخلون من أى شفقة وأى رحمة ، شِداد القوى والأبدان ، وقيل غلاظ الأقوال شداد الأفعال ، وقيل ضخام الأجسام أقوياء الأبدان ، إذا اسْتُرحموا لم يرحموا ، لأنهم خُلقوا من الغضب وجُبِلُوا على القهر ، طبيعتهم تعذيب الخلق بدون أى رحمة . وذكر الله فى سورة المُدَّثِّر عِدَّتهم ، فقال إنهم : (تِسْعَةَ عَشَرَ) وهم مالك خازن النار وثمانية عشر معه من الملائكة . ومما قيل فى وصفهم : أعينهم كالبَرْق الخاطف وأنيابهم كالقرون الحادة وأشعارهم تمسُّ أقدامهم ولهب النار يتطاير من أفواههم ، نُزِعت منهم الرأفة ، يقبض الواحد منهم بكفه على سبعين ألفاً من المشركين ويرميهم حيث أراد من جهنم ، وقيل : بل قوة الواحد منهم أن يضرب بِمِقْمَعٍ من حديد أو مِرْزَبة (مطرقة كبيرة) فيدفع بتلك الضربة سبعين ألفاً من المشركين يَهْوُون فى النار . وقيل إنما التسعة عشر المذكورون فى سورة المُدَّثِّر هم فقط الرؤساء والنُّقباء ، وأما عِدَّة أتباعهم فأكثر من أن تُحْصى لقوله تعالى فى نفس السورة بعد أن ذكر العدد السالف : (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) فيجوز أن يكون لكل كبير من الخزنة أعوان يُعَدّون بالمئات أو بالآلاف ، وقيل إنهم يبلغون سبعين ألفاً ، والله أعلم بعَدّتهم . ونفس الآية الأخيرة المذكورة بعد إحصائهم تدل على أنه ينبغى على مَنْ حَسُنَ

إيمانهم تفويض العدد إلى علم الخالق جَلَّ شأنه . وحاول المفسرون أن يعلّلوا تقدير إحصاء الله لهم بتسعة عشر تعليلات مختلفة ، منها أن أبواب جهنم سبعة كما أشار الله إلى ذلك فى سورة الحجر بقوله : (وَإِنَّ جهنَّم لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمعِين لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ) ، وقالوا إن السبعة ستة منها للكفار وواحد للفُسَّاق ، ثم إن الكفار يدخلون النار لِأُمور ثلاثة : ترك الاعتقاد وترك الإقرار وترك العمل ، فيكون لكل باب من تلك الأبواب الستة ثلاثة فالمجموع ثمانية عشر ، ثم باب الفساق ولا يكون فيه إلا ترك العمل ، فيكون المجموع تسعة عشر . وقال آخرون . إن مرجع العدد إلى أن ساعات اليوم أربع وعشرون : خمس منها مشغولة بالصلوات الخمس ، فيبقى منها تسع عشرة مشغولة بغير العبادة ويؤاخذ الإنسان على ما قد يرتكب فيها من ذنوب ، وهذه التسع عشرة ساعة هى التى تقابل عدد خزنة جهنم ، أما ساعات الصلوات الخمس فقد أُكرمت ولم يخلق الله فى مقابلتها أحدًا من الزبانية . وقال آخرون : بل إن العدد يرجع إلى أن النجوم السيارة سبعة والبروج الموكلة بتدبير العالم السفلى اثنا عشر ، وعدتها جميعاً تسعة عشر . وهناك تعليلات أخرى ، ومن الخطإ أن تُطْلَبَ للأعداد العلل . ومما قيل فى ذلك إن عدة الخزنة بعدد حروف بسم الله الرحمن الرحيم وكأن المؤمن يدفع بكل حرف من هذه الحروف خازناً من خزنة جهنم . وينبغى أن يترك علم ذلك سواء ما اتصل منه بوصف الخزنة أو بعدّتهم إلى الله لأنه من الغيب الذى لا نعرفه والذى تقصر العقول البشرية عن إدراكه . وسؤال الخزنة للكفار (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ) إنما هو سؤال توبيخ وتقريع ، والنذير الرسول المنذر الذى ينذرهم ويبلغهم رسالة ربهم وأنهم

معروضون عليه للحساب والجزاء على ما عملوا فى دنياهم من خير أو شر حتى يحذروا ويخافوا عقاب الله وعذاب النار .

(قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَىْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِى ضَلَالٍ كَبِيرٍ) :

اعتراف صريح من الكفار بأن الله أزاح عنهم عللهم ببعثه الرسل وإنذارهم بما سيحيق بهم من العذاب إن هم لم يتبعوا الرشاد وتمادوا فى الغَىِّ والضلال ، غير أنهم كذبوهم وجحدوا ما أتَوْا به قائلين (مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَىْءٍ) وظلوا فى كفرهم وعنادهم يحادُّونَ الله ورسله ، فاستحقوا ما نزل بهم من عقاب أليم . وهو إقرار منهم بعدل الله وأنهم اختاروا طريق الضلال الذى لا يرتضيه ، فعذابهم إنما هو مِن قِبلِ أنفسهم واختيارهم لا من قِبل القَدر وما دفعهم إليه من الكفر، كما يقول الجبْرية القائلون بأن الإنسان مجبر على كل ما يأتى ويدع من الأمر، وأنه لا حول ولا قوة ولا اختيار أمام القضاء . والآية صريحة فى أن الكفار استحقوا العذاب لإصرارهم على الكفر بعد الإعذار إليهم بالرسل . وهو بيان واضح لعدل الله ، تعالى عن الظلم علوًّا كبيرًا. وما كان ليعاقب كافرًا إلا بعد تأكيد الحجة عليه والإلزام له ببعثة الرسل ، وقد أكد ذلك مرارًا فى الذكر الحكيم كقوله فى سورة الإسراء : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً) ويقول فى سورة طه : (وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى) فهو لن يعذِّب الناس إلا بعد قيام الحجة عليهم وبعد كفرهم وجحودهم بالرسل . وبالمثل من أُرْسل لهم النبىُّ عليه السلام فإن الله لن

يعذبهم إلا بعد إرساله لهم منذرًا ومخوِّفاً ، ولو أنه عاقبهم دون إرسال رسول إليهم لقالوا له محقين هلا أرسلت إلينا رسولا فاتبعناه ولم يصبنا الذل فى الدنيا والخِزْىَ فى الآخرة . وما يزال الله يؤكد هذ المعنى وأن أحدًا لن يدخل النار ظلماً ، إنما سيدخلها العصاة المذنبون الذين شقُّوا عصا الطاعة على ربهم وتعاليمه فإن كثيرين ممن أرسل إليهم الرسل مرشدين هادين رفضوا هدايتهم مع ما أقاموا نصب أعينهم من رسالات ربهم التى تسقط لهم كل حجة وتطوقهم بكل برهان على عنادهم وما أصروا عليه من الكفر والضلال ، كما قال جلَّ شأنه فى سورة النساء : (رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِين لِئلاَّ يكُونَ لِلنَّاسِ علَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) وأى حجة ؟ ! لقد بلَّغوهم وأسمعوهم قوارع الله وبواهر آياته المنزلة ، ولكنهم نكلوا ومضوا فى غيِّهم وأصروا على كفرهم إصرارًا .

ويُحِسُّ خزنة النار كأنهم يتضرعون إليهم من هول العذاب فيسألونهم ساخرين ألم يُرْسَلْ لكم نذير ؟ وكأنهم يقولون لهم ألم تسمعوا من ألسنة رسلكم آيات ربكم ومواعظه ثم أنكرتموها وكذبتموها ؟ ! وفى سُنن التِّرْمذى عن أبى الدَّرْداء : يُلْقى على أهل النار الجوع حتى يَعْدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون منه ، فيُغاثون بالضَّرِيع (شجر أهل النار) لا يُسْمِنُ ولا يُغْنِى من جوع ، فيأكلونه لا يغنى عنهم شيئاً ، فيستغيثون ، فيُغَاثُون بطعام ذى غُصَّةٍ ، يغَصُّون به ، فيذكرون أنهم كانوا فى الدنيا يُسيغون الغُصص (التى تتعثر فى الحلق) بالماء ، فيستغيثون بالشراب ، فيرْفع لهم الحميمُ (الماء المغلى الحارّ) فإذا دنا من وجوههم شواها ، وإذا وقع فى بطونهم قطَّع أمعاءهم . فيستغيثون بالملائكة من خزنة جهنم كما جاء

فى سورة غافر يقولون : (ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يوْماً مِنَ الْعَذَاب) فيجيبونهم : (أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بالبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِين إلاَّ فِي ضَلالٍ) وحقًّا لقد أعذر مَن أَنْذر وأصبح النَّاكل أهلا للإيقاع به . ومن المتكلمين فرقة تسمَّى المرجئة كانت ترى ألا يسمى مرتكب الكبيرة فاسقاً وأنْ يُرْجَأَ الحكم فيه إلى الله ، وقد احتجت بهذه الآية والسالفة لها أن الله لا يدخل النار إلا الكافرين المكذبين للرسل ، إذ يقول دائماً عمن يُلْقَوْن فى النار إنهم كذَّبوا الرسل ، وزعموا أن الفاسق لا يدخل النار لأنه ليس ممن كذبوا الله ورسله ، حتى لو أصرَّ على فسقه ، وفى سورة النساء : (إنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ونُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً) وكأن الكبائر لا يكفِّرها الله بل لا بد أن يعاقب عليها . على أنه اختُلف فى معنى الكبائر وهل المراد الشرك بالله أو كبائر الذنوب كشرب الخمر واقتراف المحرَّمات ، وهو بحث يطول . وقوله تعالى : (إنْ أَنْتُم إلاَّ فِي ضَلَال كَبِيرٍ) أى ما أنتم يا معشر الرسل فيما تنذروننا به إلا فى ضلال كبير تبتعدون به عن محجَّة الحق والصواب ، وقيل : بل هذه العبارة من كلام خزنة جهنَّمَ للكفار على إرادة القول ، أرادوا حكاية ما كانوا عليه من ضلال فى الدنيا ، أو أرادوا بالضلال ما هم فيه من عذاب ، سموا عقاب الضلال باسمه أو ربما أرادوا بالضلال الهلاك .

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ) :

معنى الآيتين أن الكفار قالوا للملائكة لو كنا نسمع سماع من يطلب

الحق ويأخذ به أو نعقل عقلَ مَن يَتأمل ويفكر فى ملكوت الله وقدرته الشاملة المحيطة بالكون ما أصبحنا فى عداد أهل النار الموقَدة ، وبذلك أقرّوا بذنبهم وجُرمهم وكفرهم فَسُحْقاً لهم، وبُعدًا من رحمة الله ، إنهم لا يستحقون سوى النكال وعذاب الجحيم . وعجب الزمخشرى من أن بعض المفسرين ذهب إلى أن (نسمع) فى الآية الأولى تشير إلى أهل الحديث الذين يقدمون السماع على العقل فى مسائل الشرع فى حين (نعقل) تشير إلى أصحاب الرأى من الأحناف وغيرهم ممن يعتدون بالرأى والعقل اعتداداً كبيرًا ، يقول منكرًا ذلك : كأن هذه الآية، نزلت بعد ظهور هذين المذهبين وكأن سائر أصحاب المذاهب والمجتهدين قد أنزل الله وعيدهم فى الآية ! وكأن من كان من هؤلاء (يريد أصحاب الحديث وأصحاب الرأى) فهو من الناجين لا محالة . وقيل إن فى ذكر السمع هنا دون البصر ما يدل على أنه يفضله ، إذ جُعل له مدخل فى الخلاص من النار والفوز بالجنة . وتنبّه بعض المفسرين كما ذكر الزمخشرى إلى أن الله جمع بين السمع والعقل لأن مدار التكليف على أدلة السمع وأدلة العقل ، أما أدلة السمع فتظهر فيما جاءنا به الرسول عليه السلام من الإيمان بالمغيبات من شئون المعاد وشئون الملائكة والجن والشياطين وجميع ما أخبر به صلى الله عليه وسلم عن الحق جلّ جلاله من العبادات وغير العبادات ومن أصول العقيدة والإيمان بوحدانيته وصفاته القدسية العليا وأنه مرسل من لدنه لهداية البشرية . ويضيف القرآن إلى ذلك دعوة واسعة إلى استخدام أدلة العقل ، كما جاء فى سورة قٓ : (إنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَو أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) والقلب كما قال ابن عباس العقل ، أى أن فيما يتلو الوحى من قصص وعِبر

مختلفة عظة لمن كان له عقل سليم أو أذن تحسن سمع ما يتلوه الرسول من القرآن والتأمل فيه والبصر به بصراً ينتهى إلى الإيمان . وليس البصر فقط فيما يتصل بالدين من داخله أو مما يسمعه الناس عن الرسول ، بل أيضاً البصر بالكون وخلقه ومابَثَّ فيه الله من آيات تدل على قدرته وعلمه ووحدانيته وأنه وحده المتصرف فيه ، يتصرف فى الأفلاك وكل ما يتصل بالسماء ، ويتصرف فى الأرض وكل ما يتصل بالكائنات مما يأخذ بزمام الإنسان لو فكر فيه إلى ساحات الإيمان العميق بالله ورسالاته على نحو ما تصور ذلك آية سورة آل عمران : (إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ لَآيات لِأُولِى الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ الله قِياماً وقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ والْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا باطِلاً سُبْحانَكَ فقِنَا عَذَابَ النَّارِ) ، فَالنَّظَرُ فى آيات الله الكونية يفضى إلى الإيمان برسله وكل ما جاء على ألسنتهم من رسالاته الإلهية ، وقد أكثر الله من الدعوة إلى التفكير فى كل شىء فى الكون وفى النفس وفى آثار الأمم السالفة ، واختتم كثيراً من الآيات بمثل قوله : (إِنَّ فِى ذٰلِكَ لآيات لِقَوم يَعْقِلُونَ) وقوله : (إِنَّ فى ذٰلِكَ لَآيات لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) ولام لَوْماً شديداً مَن لا يستخدمون عقولهم فى البصر بالديانات السماوية ، وشبههم بالأنعام والدوابِّ التى لا تعقل ، من مثل قوله فى سورة الأعراف : (لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولٰئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولٰئِك هُمُ الغَافِلُونَ) فقد جعلهم بدون قلوب أو عقول حين ألغوها ، بل جعلهم عمياً صُماً فهم لا يفيدون شيئاً من آذانهم ولا من أبصارهم إذ ألغوها إلغاء ، حتى أصبحوا أدنى منزلة من الأنعام والحيوانات . واللَّـهُ بذلك وبمثله يدعو

الناس كفاراً وغير كفار إلى استخدام عقولهم واستخدام أسماعهم ، ليتدبروا ما يتلوه عليهم القرآن الكريم ، حتى يستضيئوا بنوره ويدخلوا فى دينه ، وحتى يفروا بأنفسهم من عذاب النار إلى نعيم الجنان .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) :

الخشية (بالغيب) أن تخشى الله دون أن تراه ، فتقبل على طاعته عارفاً حرمته متواضعاً لجلاله ، والله يتحدث عن المتقين وما ينتظرهم من ثواب بعد أن تحدث عن الكافرين وما سيقع عليهم من عقاب . والخشية خوف ممزوج بتعظيم وإجلال ، فهى أخص من الخوف إذ الخوف توقع العقوبة ، والخشية انقباض وهيبة وسكون إلى الله بعمل الطاعات وإخلاص له واعتصام به من خوف عذابه . ويمكن أن يكون المراد بالغيب فى الآية عقاب الله ، فهم يخشون ربهم والعذابُ غائب عنهم وعن أعين غيرهم من الناس . والغيب بذلك ما غاب عن الحسِّ والعقل من العذاب ، وربما شمل أيضاً غير العذاب من كل غيب ، فهم يخشون ربهم ، مع ما غاب عنهم من الإيمان بملائكته وكتبه ورسله والمعاد وما فيه من جزاء . وقيل (بالغيب) أى بالقلب لأنه مستور ، والمعنى الذين يخشون ربهم بقلوبهم لا كالمنافقين الذين يلوكون خشيته بألسنتهم قائلين بأفواههم ما ليس فى قلوبهم . وقيل الخوف لعامة المؤمنين والخشية للمتقين والهيبة للمحبين والوَجَلُ للمقرَّبين ، والهيبة كالخشية وإن علتها درجة ، فهى أيضاً خوف مقرون بالإجلال ، والوجل رجفان القلب وانصداعه . والخشية تتفاوت بتفاوت المعرفة والعلم كما قال الرسول عليه السلام : « إنى لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية » . وقيل مثل الخائف

وصاحب الخشية مثل من لا علم له بالطِّب والطبيب الحاذق ، فالأول يلجأ إلى الحمية والهرب من المكروه والطبيب يلجأ إلى معرفته بالأدوية والأمراض . وكل من تخافه تهرب منه إلا الله فإن من يخافه يهرب إليه ، فالخائف هارب من ربه إلى ربه . والفرق بين خوف المتقين وخشيتهم طفيف ، ولذلك يكثر فى كتاباتهم أن يعبروا عن كل منهما بصاحبه ، كأن يقول أحد الزهاد الأولين : الخوف إذا سكن القلب أحرق موضع الشهوات منه وطرد مآرب الدنيا عنه ، وقيل للفُضَيل بن عِياض الناسك المعروف : بِمَ بلغ بك الخوف ما بلغ ؟ قال بخشية الذنوب . وللخوف أسباب أولها العقل السليم ، ثم ترك المعاصى الذى يدفع القلب ويرق به إلى الرقة والخشية . وقد ذكر الله أن أول ما يسبغه على من يخشونه بالغيب المغفرة ، وهو يكرر فى القرآن عشرات المرات أنه غفور وغفّار لمن أخلص فى توبته وأنه يعفو عن السيئات ، بل إنه ليقول فى سورة الزُّمَر : (إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً) أى لمن تابوا ومن لم يرتكبوا سوى الصغائر مع ندمهم عليها وخشيتهم من ربهم ، فإن المرء إذا فكّر بتوفيق الله فى نفسه ، فوجدها تحمل ذنوباً اكتسبها وسيئات اقترفها وانبعث منه الندم على ما فَرَّط فى جَنْب الله وهجر ذلك مخافة عذاب الله وخشيته منه استحق الغفران من ربه ، وإلا استحق العقاب لإصراره على المعصية ، إذ الإنسان يؤخذ بما وطّن عليه ضميره واعتزمه بقلبه من العصيان . والحق أن الله يفتح أبواب المغفرة على مصاريعها فى القرآن لمن أنابوا إليه وأخلصوا لوجهه عبادتهم وأعمالهم . ودائماً يستوجب المرء الغفران إذا اعترف بما جَنَى من الذنوب واقترف . وفى صحيح مسلم عن الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يحكى عن ربه عَزَّ وَجَلَّ ، قال : «أذنب عبد ذَنْباً ، فقال :

اللَّهُمَّ اغْفِرِ لِى ذنْبِى ، فقال تبارك وتعالى : أذنب عبدى ذنباً فعلم أن له رَبا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب . ثم عاد فأذنب فقال أىْ ربٍّ اغْفِرِ لى ذنبى ، فقال تبارك وتعالى : أذنب عبدى ذنباً فعلم أن له رَبًّا يَغْفر الذَّنْبَ ويأخذ بالذنب . ثم عاد فأذنب ، فقال : أى ربٍّ اغفرلى ذنبى ، فقال تبارك وتعالى : أَذْنَب عبدى ذَنباً فعلم أن له رَبًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذَّنب ، ثم قال : اعملْ ما شئتَ فقد غفرتُ لك » . وفى الحديث دليل على صحة التوبة بعد نقضها بمعاودة الذنب وأن الله واسع المغفرة للذنوب سعة بدون حدود ، سعة أكرم الأكرمين . والله لا يَعِدُ مَن يخشونه بالغيب مغفرة واسعة فقط بل يعدهم أيضاً أجرًا كبيرًا ، هو الجنَّة وما بها من نعيم ومن رضوان الله العظيم .

(وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) :

أمرٌ للتهديد لا للتكليف ، وهو تهديد للكفار ، كانوا يتكلمون فيما بينهم بأشياء ضد الرسول عليه السلام ، فقال بعضهم لبعض تَحدَّثوا سِرًّا حتى لا يسمع ربُّ محمد ما تقولون ، فقال لهم الله تحدَّثوا سِرًّا أو جهرًا فإن الله يعلم ما تقولون ، وإسرار الأقوال وجهرها بالقياس إليه مستويان . وتقديم الإسرار على الجهر والإعلان لبيان أنهما جميعاً عنده تعالى سواء فى تعلق علمه أو لأن السر يتقدم دائماً الجهر ، إذ ما من شىء يُجهَرُ به إلا ومباديه تظهر أولا فى السر والضمير . والقرآن يكرر كثيرًا تهديدًا للكفار والمشركين أنه يعلم ما يسرون وما يعلنون وما يكنونه فى صدورهم وما يظهرونه على ألسنتهم من مثل قوله فى سورة غافر : (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى

الصُّدُورُ) ، أى يعلم الأعين الخائنة ومسارقتها النظر الخبيث كما يعلم ما تضمر الصدور ، و يقول جَلَّ شأنه فى سورة النَّمل : (وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِى السَّماءِ والأَرْضِ إلاَّ فِى كِتَابٍ مبِينٍ) فما من خَصْلَةٍ وما من غيب إلا ويعلمه الله فكيف يخفى عليه ما يسر هؤلاء الكفار وما يُعلنون ، وكل شىء عنده مثبت فى كتاب ، لا يفوته منه أى فائت ، مهما كان صغيرًا ، حتى لو كان مثقال حبة من خَرْدل . إن علمه ليحيط بكل ما يضمره الكفار وبكل أسرارهم الخفية المستكنة فى الصدور أو فى (ذات الصدور) وهى نفسها الصدور لأن ذات الشىءِ نفسه أى كل ما فيها من خير أو شر ونوايا طيبة أو سيئة . ويتردد فى الذكر الحكيم وصف الله بأنه عليم ، وأن علمه محيط بكل شىء أسرارًا وغير أسرار كما جاء فى سورة الأنعام : (وَعِنْدهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لَا يعْلَمُهَا إلاَّ هُوَ ويعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ والْبَحْرِ وما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلَّا يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يابِسٍ إلاَّ فِى كِتَابٍ مُبِينٍ) ، ومفاتح الغيب مجاز عن شمول علم الله لكل ما غاب عنا لأن المفاتيح عادة تفتح الأبواب المغلقة المحكمة الإغلاق ، وهو جلَّ شأنه يفتح بها خزائن الغيب كله ، فلا يغيب عنه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وكل شىء عنده مدوَّن فى كتاب دوَّنه العلم الإلٰهى فى الأزل ، دوَّن ما كان وما يكون ، فهو العليم الذى لا تخفى عليه خافية لا فى الأرض ولا فى السماء ، يعلم ظاهر كل شىء وباطنه ، إذ كل شىء نسبته إلى علمه سواء ، وهو علم زائد على ذاته كما ذهب إلى ذلك أهل السنة أى أنه عالم بعلمه وبالمثل بقية صفاته ، فهو قادر بقدرته ومريد بإرادته ، وقالت المعتزلة إن صفاته ليست زائدة على ذاته ،

فهو عالم بذاته وبالمثل قادر ومريد . وهو خلاف يكاد يكون لفظيا ، على الرغم من كثرة الجدال بين الآراء المتعارضة ، ويكفى أن نعرف أن علم الله مثل بقية صفاته أزلىّ ، فهو عالم بعلم ، قادر بقدرة ، مريد بإرادة ، متكلم بكلام ، إلى غير ذلك من الصفات الربانية التى تردد ذكرها فى القرآن الكريم . ولا ريب فى أن كل ما فى الوجود كأنه كتاب مفتوح أمام الله ، فهو يعلم السر والجهر والباطن والظاهر والماضى والمستقبل ، علماً غير محدود بزمان ولا بمكان كعلم الإنسان ، بل هو علم واسع لا يحدّه الكون ذاته ، علم يشمل كل صغيرة وكبيرة فى الماضى والحاضر والمستقبل كما يعلم الإنسان ما يبصره ويراه تحت عينيه . وتدور فى القرآن صفات كثيرة لعلم الذات العلية ، فى مقدمتها الوصف بأنه عليم يعلم كل شىء ومنها « الحفيظ. » الذى يحفظ. الأعمال ولا ينسى منها شيئاً ليجازى عليها ، و « الشهيد » الذى لا يغيب عنه أمر من الأمور ، و « السميع » الذى لا يتناهى علمه بالمسموعات و « البصير » الذى لا يُحَدُّ علمه بالمُبْصرات ، و « الحكيم » الذى يعلم مواقع الحكمة فى الأشياء ، فلا يدخل خلل على ما يعمله أو يخلقه ، بل كل شىء ببصيرة وبحكمة لا تعلوها حكمة ، و « اللطيف الخبير » وسيأتى شرح هاتين الصفتين فى الآية التالية . وما من شك فى أن من يعلم علم اليقين أن الله مطلع على سره وجهره مُحْصٍ عليه جميع ما كسب واكتسب من أعمال لا بد أن ينيب إليه ويتعلق بغفرانه وإحسانه .

(أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) :

معنى الآية ألا يعلم السر والجهر من خلق بحكمته جميع الأشياء ومن

أحاط علمه بالسر والجهر والخفى والظاهر . وهو وحده (اللطيف) الذى يعلم دقائق الأشياء حتى ليعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمّاء فى الليلة الظلماء ، وقال الغزالى إنما يستحق اسم اللطيف من يعلم دقائق المصالح وغوامضها وما دَقَّ منها وما لَطُف ثم يسلك فى إيصالها إلى عباده الرفق دون العنف ، فإذا اجتمع الرفق فى الفعل واللطف فى العلم تَمَّ معنى اللُّطْف ، ولا يتصوَّر كمال ذلك فى العلم والفعل إلا لله تعالى . و (الخبير) العالم ببواطن الأشياء وظواهرها الذى لا يَعزُبُ عنه شىء فى ملكه الكونى ولا فى ملكوته الغيبى ولا تتحرَّك ذرة ولا تسكن ولا تضطرب نفس ولا تطمئن إلا ويكون عنده خبرها . وهو بمعنى العليم غير أنه يختص بالخفايا الباطنة ، فالعلم بها يسمى خبرة ، ويقال لصاحبها خبير . ومن طريف ما قاله بعض المفسرين أن من سنة الله حفظ كل لطيفة فى طى كل كثيفة كصيانة النفائس فى الأشياء المجهولة ، ألا ترى أنه جعل التراب الكثيف معدن الذهب والفضة وغيرهما من الجواهر ، والصدف معدن الدر ، ودود القزّ معدن الحرير ، وذباب النحل معدن الشهد ، وبالمثل القلب جعله موضع الإيمان ومعدن معرفته ومحبته . وكأن الله جلَّ شأنه فى ذكره اللطيف الذى يتضمن معنى الرأفة مع ذكره الخبرة المتضمنة لعلمه بخفايا الأمور أراد أن يشير إلى رحمته بالعباد وأنه يسلك سبيل الرفق بهم حتى حين يعصونه ويحادّونه ، فهو دائم اللطف بهم يجبر الكسير وييسِّر العسير ، ولا يرد سائله ، ولا يؤيس آمله . وتصوِّر سورة لقمان لطف الله وخبرته وعلمه بكل خفىّ إذ يقول لقمان لابنه: (يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَو فِى الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) ، فحبّة الخردل مع صغرها

إذا كانت فى أخفى موضع كجوف صخرة أو حيث كانت فى عالم السموات العلوى أو فى عالم الأرض السُّفْلى يأْتِ بها اللهُ اللطيف باستخراجها ، الخبير بمستقرها . وبهذه الخبرة وبذلك اللطف وما يتصل بهما من علمه خلَق العالم وقَدَّر كل شىء فيه بحكمته ، حتى أرزاق الناس ، ولذلك كان يتكرر معها أن الله لطيف أو أنه خبير ، فكل شىء فى العالم وُضع بلطف وخبرة وحكمة . ومن الأحاديث التى تصور علم الله بدقائق الأمور ولطفه بخلقه ما رواه الرسول عليه السلام عن ربه فى حديث قدسى مؤداه أن الله يدبر لعباده لعلمه بقلوبهم فقرا وغنى وسعادة وشقاء وإيماناً وضلالا بمقتضى علمه وخبرته وهما خبرة وعلم يتضمنان لطفاً وحكمة بالغين . ولو تدبرنا ما قسمه الله بين الناس من حظوظ لظهرت فيها حكمته وتجلت خبرته ولطفه بعباده حتى لنؤمن بأن كل إنسان قد نال ما يصلح به أمره .

(هُوَ الَّذى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وإِلَيْهِ النُّشُورُ) :

معنى (ذَلُولًا) سهلة لينة منقادة غاية الانقياد بحيث يستطيع النّاس أن يعيشوا فيها ويستغلوها ويستثمروها . وهو بيان لنعمة الله على الإنسان ، فقد مهد له الأرض بغاية الحكمة ، فلم يجعلها صلبة خشنة يعسر مشيه عليها كما يعسر حَفْرها وشقها للغرس والبناء ، ولا جَعلَها فى غاية الرخاوة واللين بحيث لا تمسك شيئاً لا بناء ولا إنساناً ولا حيواناً ولا شجرًا . ولم يجعلها حارة حرارة شديدة مستمرة بحيث تخنق الإنسان والنبات ،

ولا جعلها باردة شديدة البرودة لا تستطيع الكائنات أن تستقر عليها ، بل جعلها معتدلة أو وسطاً بين البرودة والحرارة والليونة والصلابة لتكون مهاداً للإنسان والكائنات ولتكون بساطاً وفراشاً ومسكناً ومستقراً للبشر يضرب الإنسان فيها معاوله للحرث والزرع وللأبنية الضِّخام ، وشَقَّ له فيها العيون والآبار وجعل خلالها الأنهار وأنبت له فيها الأشجار وأنزل الأمطار وأخرج الثمار ، وقدَّر له فيها جميع الأقوات . وجعلها قطعاً متجاورة ، فتلك سهلة وأختها حَزْنة تلاصقها ، وهذه منافعها ظاهرة فى النبات وغير النبات ، وهذه منافعها باطنة فى المعادن وغير المعادن ، وهذه وديان وتلك جبال ، وهذا ماء عذب وذاك ماء ملح ، وبساتين وحدائق ذات بهجة . ولو مُثِّلت الأرض والناس عليها فى صورة لكان خير صورة لها أُمٌّ غاذية ، لكل طفل من أطفالها نصيبٌ فى أثْدائها . وكل ذلك بحكمة الله وقدرته وما أسبغ على الإنسان من مِنَنٍ ونعم بتذليله الأرض له وتسخيرها لمنافعه . وأمرُ الله جَلَّ شأنه فى الآية بقوله :(فَامْشُوا فى مَنَاكِبِها) إنما هو للإباحة وفيه إظهار الامتنان ، وقيل هو خبر بلفظ الأمر أى لكى يمشوا فى جوانبها وأطرافها حتى يحيطوا بها وينتفعوا أكبر انتفاع بما فيها ، أى امشوا حيث أردتم فقد جعلتها لكم ذَلُولاً سهلة لا تمتنع عليكم . وأصل معنى المنكب الجانب ، وقال الراغب المَنْكِبُ مجتمع ما بين العَضُد والكتف ومنه استُعِير للأرض فى قوله تعالى : (فَامْشُوا فى مَنَاكِبِهَا) كاستعارة الظهر للأرض فى قوله عَزَّ شأنه فى سورة فاطر : (مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ). وقال الزمخشرى : المشى فى مناكبها مَثَلٌ لفرط التذليل ومجاوزته الغاية ، لأن المنكبين وملتقاهما من الغارب أرق شىء من البعير وأنْبَاه (أبعده) عن أن يطأه الراكب بقدمه

ويعتمد عليه ، فإذا جعلت فى التذليل بحيث يُمشَى فى مناكبها فقد صارت نهاية فى الانقياد والطاعة . وقيل مناكب الأرض جبالها وآكامها ، والمعنى إنى سهلت عليكم المشى فى مناكبها وهى أبعد أجزائها عن التذليل فكيف بسائر أجزائها فإنها أكثر تذليلا وانقياداً . وقيل المناكب الطرق والفجاج كقوله تعالى فى سورة نوح : (واللهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطاً لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلاً فِجَاجاً) . والأولى أن نأخذ بالمعنى الأول لأنه أعم ، ودائماً يقدَّم المعنى العام فى تفسير الذكر الحكيم على المعنى الخاص لشموله . (وكلُوا مِنْ رِزْقِهِ) الأمر هنا أيضاً للإباحة ، ويرى بعض المفسرين إبقاء المعنى على ظاهره أى كلوا من نعم الله تعالى من الحبوب والثمار والفواكه ، وقيل إن الأكل فى الآية مجاز عن الالتماس ، أى انتفعوا بما أنعم به الله والتمسوا فيه رزقكم . واستدل بعض السابقين بالآية على النَّدب للتسبب والكسب ، وفى الحديث إن الله يحب العبد المؤمن المحترف ، ولا ينافى ذلك التوكل على الله الذى ندب إليه القرآن بمثل قوله تعالى فى سورة آل عِمران : (فَتَوَكَّل عَلَى اللهِ إنَّ الله يُحِبُّ المُتَوَكِّلِينَ) ويُروَى أن عمر بن الخَطَّاب رضى الله عنه مَرَّ بقوم فقال : من أنتم ؟ فقالوا : المتوكلون ، ولاحظ أنهم قعود لا يعملون ، فقال : بل أنتم المتأكِّلون (الذين يأكلون عالة على الناس) إنما المتوكل رجلٌ ألقى حَبَّه فى بطن الأرض وتوكَّل على رَبِّه عَزَّ وجلَّ . فالتوكل على الله لا يكون بترك العمل والسبب ، ومن ظن ذلك فقد خالف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنة أصحابه ، بل لقد خالف الله عزَّ وجَلَّ فى مثل قوله فى سورة الأنفال : (فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّباً) والغنيمة فى الحرب عن شاق واكتساب . وقد أجمع عامة الفقهاء على أن التوكل لا يكون بترك الأسباب

والركون إلى الله بل لا بد من الأسباب والسعى فى الأرض مع الثقة بالله والاعتماد عليه . وقد يُظَنّ أن إثبات الأسباب يقدح فى التوكل ، ولكن العكس هو الصحيح فنُفاةُ الأسباب لا يستقيم لهم توكل ألبتَّة ، فإن التوكل إنما هو رسوخ الاعتماد على الله مع السعى فى الأسباب من مطعم ومشرب وتحرز من عدو وجهاد فى سبيل الله واستخدام ما تقتضيه سُنن المعاش والحياة من عمل وكفاح . (وَإِلَيهِ النُّشُورُ) أى المرجع بعد البعث فبالغوا فى شكر نعمه التى ترونها رأى العَين فى تذليل الأرض وتمكينكم منها وبَثِّ الرزق فيها . وقيل بل المعنى : إن الذى خلق السماء لا تفاوت فيها ، وخلق الأرض لكم ذلولا ، قادرٌ على أن ينشركم ويحييكم بعد موتكم ، فانتهوا عن الكفر والمعاصى فى السر والجهر قبل أن يحل بكم عذاب النار فى دار البوار .

(أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِى السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ) :

قيل المراد بمن فى السماء الملائكة الموكّلون بتدبير الكون ، وقيل : بل جبريل لأنه الملك الموكّل بالخسف ، واتفق أئمة السلف على أن المراد الله جَلَّ شأنه كما يدل على ذلك ظاهر الآية ، وقالوا إن الكلام على تأويل من فى السماء أمره وقضاؤه . وقالوا أيضاً إنه خَصَّ السماء بالذكر وملكه أعم منها إذ يشمل الكون كله تنبيهاً على أن الإله الحقيقى هو الذى تنفذ قدرته فى السماء لا آلهتهم الأرضية . وقيل إن الكلام على تقدير مضاف أى أأمنتم خالق من فى السماء . وقيل إن (فى) فى كلمة (فى السماء) بمعنى فوق ، حتى لا تفهم

العبارة على ظاهرها وما قد يظنه المجسِّمَة من أن السماء تحيط. بالله من جميع الجوانب ، وكأنه يحلُّ فى حيز مكانى . ونفس كلمة فوق لا تحل المشكلة ؛ لأنها قد تدل على فوقية الجهة أو علوها مما يدخل فى صفات الأجسام ، وهو ما قالت به المجسمة أو المشبِّهة ، وهم فرقة ضالَّة . وذهب فريق من السلف إلى أن مثل هذه الآية فى القرآن من المتشابه الذى نزلت فيه آية آل عمران :(هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ٱبتِغَاء الفِتْنَةِ وَابتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ والرَّاسِخُونَ فى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كلٌّ مِنْ عِنْدِ ربِّنَا). وهم يؤمنون بالمعنى الذى أرادته الآية مع كمال التنزيه لله عن الجسمية وما يتصل بها ، ومثلها الآيات الواردة فى القرآن التى قد يفيد ظاهرها التشبيه مثل آية سورة الحديد : (ثُمَّ استَوَى عَلَى العَرْشِ) وهم بذلك يكفُّون أنفسهم عن التأويل ويُجْرون ظواهر الآيات على مواردها مفوِّضين معانيها إلى الله عَزَّ وجلَّ ، ويُروَى عن الإمام مالك أن رجلا سأله عن قوله تعالى فى سورة طه : (الرَّحْمٰنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى) فأجابه : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . وأخذ برأى الإمام مالك فى مثل هذه الآية الشافعى وابن حنبل . وذهب آخرون وفى مقدمتهم المعتزلة إلى تأويل مثل هذه الآية ،لأن القرآن نزل بلغة العرب وفيها الحقيقة والمجاز ، وما دام من الممكن أن يوجَّه معنى آية على المجاز فلا داعى لعدم تأويلها ، بل لعل تأويلها عندهم يصبح واجباً ، فمثلا آية سورة الحديد يستقرئون ما يشبهها عند العرب فى

مجرى كلامهم ، فيجدونهم كما قال الزمخشرى يقولون : «استوى فلان على العرش» يريدون ملك وحكم وإن لم يقعد على عرش ألبتة ، لدلالته القوية على المعنى كما قالوا يد فلان مبسوطة ويده مغلولة بمعنى أنه جواد وبخيل لا فرق بين العبارتين ، يقول الزمخشرى ومنه قول الله عَزَّ وجَلَّ : (وَقَالَتِ الْيَهُودُ يدُ اللهِ مَغلُولَةٌ غُلتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَل يَداهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ) أى قالوا هو بخيل ، وردَّ القرآن بأن الله كريم بدون تصوُّر يد حقيقية ولا غلّ (قبض) ولا بسط . ويمكن توجيه الآية فى السورة بأنه ليس المراد بكون الله فى السماء أو فوق السماء ظرفية الجهة أو فوقية الجهة ، إنما المراد استعلاء القدرة وفوقيتها ، كما جاء فى سورة الزُّخْرف : (وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلٰهٌ وَفِى الْأَرْضِ إِلٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ) . وجوَّز الزمخشرى أن تكون الظرفية فى الآية باعتبار زعم العرب أنه تعالى فى السماء أى أأمنتم مَن تزعمون أنه فى السماء وهو متعالٍ عن المكان ، وردَّ الألوسى هذا الرأى وقال إنه لا يناسب بناء الكلام فى مثل هذا المقام . والآية كما قدمنا واضحة ، وهى لا تريد سوى بيان قدرة الله وأنها تشمل الكون وأنه يستطيع أن يسلط على الكفار عذابه من السماء أو من الأرض كما تدل على ذلك بقية الآية ، وكما قال فى سورة الأنعام : (قُل هُوَ القَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعثَ عَلَيْكُم عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) فيرسل عليهم طوفاناً من السماء كما أرسل على قوم نوح ، أو يرسل عليهم (رِيحاً صَرْصَرًا) شديدة البرد والصوت تدقُّ أعناقهم كما أرسل على عاد قوم هود ، أو يرسل عليهم صيحة من السماء لا تبقى منهم ولا تذر كما أرسل على ثمود ، أو يخسف بهم الأرض ويجعل عاليها سافلها كما صنع بقارون فلم تُغْنه قوته ولا ماله

ولا رجاله فيما نزل به وبداره من دمار ، وكأن الله تبارك وتعالى يقول للكفار : لقد جعلت لكم الأرض ذلولا تمشون فى جوانبها وتنعمون بطيباتها ، فكان جديراً بكم أن تنيبوا إلىّ لا أن تكفروا نعمتى عليكم ، ولا تعجبْكم كثرتكم ولا جموعكم ولا قوتكم فإنكم لن تعجزوا ربَّ السموات والأرض ، ولو شاءَ لخسف بكم دياركم كما خسف بالباغين من قبلكم ديارهم ، فإذا الأرض من تحتكم (تمُورُ) أى تضطرب وتدور وترتجّ ارتجاجاً يأتى عليكم كأن لم تكونوا شيئاً مذكوراً .

(أَمْ أَمِنتُمْ مَنْ فِى ٱلسَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَستَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ) :

. واضح أن قوله جَلَّ شأْنه فى هذه الآية (مَنْ فى السَّماء) إنما هو كسابقتها لا يراد به وصف العلو المكانى وإنما يراد وصف العلو المعنوى وما يتصل به من القدرة والقهر والعظمة ، مع تنزيهه كما مر بنا عن الأماكن والجهات والحدود وغير ذلك من صفات الأجسام التى تشمل فيما تشمل العلو المادى والدنو الحسى . أما اتجاه الناس فى الدعاء إلى السماء ورفعهم الأيدى إليها فلأنها مهبط الوحى ومحل الملائكة الأطهار وقبلة الدعاء كما جُعلت الكعبة قبلة الصلاة . وقد كان الله فى أزله قبل خلق السموات والأرض وقبل خلق المكان والزمان ، أى أنه لا مكان له ولا زمان ، وهو الآن على ما عليه كان ، والسماء والأرض بالقياس إليه سِيَّان . وكلمة (أَمْ) تفيد الإضراب ، كأن الله جلَّ شأنه أضرب عن الوعيد بالخسف إلى الوعيد بإرسال حاصب على الكفار ، وقد ذكر الخسف أولاً لمناسبة ذكره الأرض قبل ذلك وجعلها ذلولا

للإنسان يمشى فى مناكبها ، ثم ذكر الحاصب ثانياً فى مقابلة الامتنان الذى ذكره بعد تذليل الأرض بإسداء الرزق إلى الإنسان ، وقد قال فى سورة الذاريات : ﴿وفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ والمراد بالرزق فى هذه الآية ما ينزل من السماء من مطر ومن ثلج ينبت بهما الزّرع ويحيا الناس ، وكأنه جعل الحاصب فى مقابلة الرزق عامة . والحاصب حجارة من السماء أو ريح فيها حجارة وحصباء وهى الحصا الصغار . وقد ذكر الله فى القرآن مرارًا أنه أرسل الحاصب على قوم لوط حين تمادوا فى غَيِّهم وفيما كانوا يأتون من الفحشاء ، غير مبالين بما تهدَّدهم به لوط عليه السلام من عذاب الله ، فأتاهم العذاب صُبْحاً ، إذ أمطرتهم السماء الحاصب وخسفت بهم الأرض وجعل عاليها سافلها على نحو ما صوَّر ذلك الله فى سورتى هود والحجر . وحاصب آخر رأته قريش تحت أعينها فى ديارها لم يمض عليه زمن طويل ، إذ رآه الجيل السابق للرسول عليه السلام حين ملكت الحبشة اليمن وسوَّل الشيطان لواليها عليها أبرهة أن يبنى كعبة لليمنيين فى ديارهم حتى لا يحجّوا فى الجاهلية إلى مكة وكعبتها وحتى لا تكون هناك صلة بينهم وبين إخوانهم الشماليين تُفْضى إلى لقاء وتناصر ضد الحبشة . ولم يكتف بذلك فقد جَهَّز جيشاً بالعُددِ والسلاح ، وغَزَا به مكة يريد هدم كعبتها ، وصحب معه بعض الفيلة لتخويف المكيين وإرهابهم ، وسمع المكيون بالجيش واقترابه من بلدتهم فهرعوا إلى الجبال وتركوا البيت لربه يحميه ، وحماه الله ، فأرسل على القائد الحبشى وجيشه جماعات من الطير كانت ترميهم بحجارة من سِجِّيلٍ كأنها كانت مهيَّأة لهم وتنتظر وصولهم إلى مكة ليصبَّها الله على رءوسهم وأجسادهم ، فإذ الجُدرِى يتفشَّى فيهم كما أجمع على ذلك

المفسرون وأصحاب الأخبار ، وهلك الجيش الجرار وأصبح أثرًا بعد عين .

والله ينذر كفار قريش أن يصيبهم ما أصاب جيش الأحباش المعتدين منذ عهد قريب وما أصاب قوم لوط منذ عهد بعيد ، وقد خَصَّ حادثة الجيش الحبشى والفيل الذى كان معه بسورة قصيرة إذ يقول جَلَّ شأنه : (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مأكُولٍ) ، والعصف غلاف حبات القمح وهى فى سنابلها ، شبَّه الله تقطّع أوصال هؤلاء الجنود المغيرين بتفرق أجزاء هذا الغلاف ، إذ أصبحوا يتساقطون وتتساقط أجزاؤهم وأشلاؤهم وكأنهم تِبْنٌ تعصفه الرياح يميناً وشمالا . وفى ذلك عظة أى عظة للكفار كى ينتهوا عن كفرهم وغَيِّهم ، حتى لا يرسل الله عليهم حاصباً من السماء ، وها هم أولاء أصحاب الفيل على ضخامته وضخامة جيشهم أهلكهم الله بأضعف خلق من كائناته ، وهو الطير . ولعل الإهلاك كان بضرب منه ضعيف حمل إلى جيش المعتدين جراثيم الجدرى ، فإذا هم صرعى هالكون ، ويقول لهم مهددًا : (فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ) أى إنذارى عندما يقع بكم النكال وينزل العذاب ويحق العقاب .

(وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) :

التفت الله فى هذه الآية من الخطاب إلى الغيبة إيماء إلى إعراضه عن الكفار ، وإنه ليهددهم ويتوعدهم حتى لا يحلّ بهم الهلاك كما حَلَّ على من كذبوا الرسل من قبلهم ، ومعنى (نَكِيرِ) إنكارى عليهم بإنزال العقاب

الشديد . ويذكر القرآن مرارًا وتكرارًا الأُمم التى كذبت الرسل وما حاق بها من عذاب ، وفى ذلك يقول جَلَّ شأنه فى سورة العنكبوت : (فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) فأَما مَن أُرسِلَ عليهم الحاصب فهم قوم لوط وجيش أبرهة الحبشى ، ويمكن أن نلحق بهم عَادًا قوم هود ، أُهلكوا بالصواعق وبريح باردة عاتية كما قال الله فى سورة القمر : (كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ) أى منقطع من منابته ساقط على الأرض صريع الموت والهلاك . وأما من أخذته الصيحة فمثل ثمود قوم صالح وكانوا يسكنون الحِجْرَ فى شمالى الحجاز ، وعبثاً حاول صالح عليه السلام أن يدخلهم فى دين الله وطاعته فأَبوا وبغوا ، فأَنزل الله بهم عقابه كما يقول فى سورة هود : (فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ ربَّكَ هُوَ الْقَوِىُّ الْعَزِيزُ وَأَخَذَ الَّذِين ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) ومثلهم أهل مَدْين قوم شعيب وكانوا كفارًا ويبخسون الكيل والوزن فدعاهم إلى التوحيد وإلى الأَمانة فرفضوا دعوته وتمادوا فى غَيهم وخيانتهم ، فنزل بهم عقاب ربهم كما قال فى سورة هود : (وَلَمَا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِين ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصبَحُوا فِى دِيَارِهِم جَاثِمِينَ) صَرعى لا حراك بهم . وأُرْسِل شُعَيبٌ أيضاً إلى أصحاب الأَيْكَةِ بالقرب من قريته مدين ، والأَيكة الغَيْضَة وهى الشجر الملتفُّ ، فكذَّبوه بدَوْرهم ، كما قال الله فى سورة الشعراء : (فأَخَذَهُمْ عذَابُ

يوْمِ الظُّلَّةِ) إذ أظلتهم سحابة من سَموم فتح الله عليهم بها باباً من أبواب جهنم فاحترقوا كما يحترق الجراد فى النار . وأما من أخذه الخسف فقارون كما مرّ بنا فى آية الخسف السالفة ، ومثل أصحاب الرَّسِّ وهى بئر كانت لبقية من ثمود ، أرسل إليهم الله رسولا ، وقيل إنه صاحب سورة يَس الذى قال : (يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا المُرْسَلِينَ) فحادُّوه وقتلوه ورموه بالبئر ، فخسف الله الأرض بهم فهلكوا جميعاً ، وقيل : بل أظلتهم سحابة سوداء فأحرقتهم . وأما من أخذه الغَرق فقوم نوحٍ ، إذ أخذهم طوفان من الأرض والسماء فأهلكهم عن آخرهم كما يقول الله فى سورة القمر : (فَفَتَحْنَا أَبوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الماءُ عَلَى أَمرٍ قَدْ قُدِرَ) ومثل قوم نوح قوم فرعون عُذِّبوا بالغَرقِ جزاءً لطغيانهم وكفرهم . ولم يظلم الله أحداً من كل هؤلاء الكفار ، بل هم الذين ظلموا أنفسهم وزَجُّوا بها فى هذا العقاب الشديد ، وكأن الله يقول لكفار مكة احذروا أن يقع بكم عذاب كعذاب الأمم الخالية التى كذبت بالرسل ، فحلَّ بها وعيدى ونزل انتقامى وذاقت عقابى ، وإنه لحرى بكم أن تصدّقوا رسول الله حتى لا تأخذكم صنوف النكال ، وحتى تنجوا بأنفسكم من المهالك المردية قبل فوات الأوان. وفى الآية تسلية للرسول عليه السلام ، كأن الله يقول له : لا تحزن بتكذيب الكفار لك ، لأنك لست أول رسول كذبه قومه ، فقد كُذِّب كثير من الرسل وصبروا على أذى أقوامهم ، فاصْبِر كما صبر أُولو العَزْم ، إن الله مع الصابرين .

(أَوَ لَمْ يرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ ويقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ

إِلاَّ الرَّحْمٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ) .

معنى (أو لم يروا إلى) أو لم يعلموا أى قد علموا علماً يقيناً شأن الطير التى تسبح أمام أعينهم فى السماء ، و (صافَّات) من الصف وهو كون الشىء على خط مستقيم ، ومفعول (صافَّاتٍ ويَقْبِضنَ) محذوف أى أجنحتهن ، والطير حين تبسط أجنحتها للطيران تصفُّ قوادمها صَفًّا . وقوادم الطير ريشه الطويل وهى عشر فى كل جناح ، وهى تقبض هذه القوادم حين تضم أجنحتها ، وتضرب بها جنوبها حيناً فحيناً للاستظهار على التحرك ، ولم يقل تعالى شأنه قابضات كما قال (صَافَّاتٍ) وإنما قال (يَقْبِضْنَ) لأن طيران الطير فى الهواء كسباحة الإنسان فى الماء ، فكما أن الأصل فى السباحة مَدّ الأطراف وبسطها فكذلك الأصل فى الطيران صَفُّ الأجنحة ومَدها ، أما قبض الأجنحة فيكون تارة بعد تارة ، ولذلك جىء معها بالفعل (يَقْبِضْنَ) للدلالة على أن هذا القبض يتجدد كرة بعد أخرى وحيناً إثرحين . والله جَلَّ شأنه يصوِّر آية من آياته الكونية للدلالة على قدرته وإبداعه فى خلقه ، فتلك الطير تسبح فى الهواء وتستقر فيه كأنه مسكنها تأوى إليه دون حاجة إلى أى شىء يساعدها على البقاء فيه . وحتى أجنحتها فإنها لا تحتاج فى سَبْحها وطيرانها إلى تحريكها . ومن حين إلى حين تحرِّكها وتقبضها حين تفكر فى الهبوط أو تفكر فى الصعود ، صنع الله الذى أحسن كل شىء خلقه وأتاح له من القدرة ما يمكِّنه من النهوض للحياة ، فهذا يمشى على وجه الأرض ، أو يزحف ، أو يسبح فى مياهها ، وذاك يطير فى جوها حتى إنه ليطير أحياناً بدون زغب ولا ريش كالخفَّاش . وقد يكون ضخم الجثة ومع ذلك يطير ،

وكأن الهواء وَكْره ومستقره ، ومهما هبط إلى الأرض فإنه يطير بما أودع الله أجنحته من القدرة ومن التعادل مما يهبها الطيران والسباحة فى الأجواء . ولو أمسكت بطير فقصصت أحد جناحيه ما استطاع الطيران لأن الجناحين فقدا تعادلهما ، أما إذا قصصتهما جميعاً كان أقوى على الطيران وإن لم يبعد ، لأنه إذا كان مقصوصاً من جانب واحد اختلف خلقه واضطرب تركيبه ولم يعتدل وزنه وأصبح أحد جناحيه هوائيًّا والآخر أرضيًّا . والطير أشكال كثيرة منها الوحشى والأليف ، ومنها الجميل المنظر الذى يروق ، ومنها ما يغنِّى ومنها ما يصيح ، ومنها طويل العنق ومنها طويل المنقار والمخالب ، مع اختلاف الريش وتنوع الألوان وتعاريجها البديعة . عجائب تدل على ما وراءها من قدرة الله الباهرة فى الخلق والتركيب ، وأن كل شىء فى الوجود ينقاد إليه ، وكأن لكل شىء زِماماً بيده ، الإنسان فى الأرض والملائكة والأفلاك فى السماء والطير فى الهواء ، يقول فى سورة النور : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِى السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ فكل من فى السموات من الملائكة يسبِّح له طوعاً وكل من فى الأرض يسبِّح له اختيارًا ، وتسبِّح له الطير تسخيرًا وانقيادًا دالة على حكمته ، إذ هى منقادة له طائعة يخلقها ويصرِّفها كما يشاء ، ولسان حالها ناطق بتنزيه الله عن كل ما لا يليق به ، شاهد بكمال قدرته ، وأنه ليس كمثله شىء . وما من طائر بل ما من جناح طائر بل ما من جناح بعوضة تتأمل فيه حتى ترى من خَفِيَّات القدرة الإلهية فى خلقه ما يشتدّ معه تعجبك. واستنبط بعض المفسرين أن فى ذكر الطير بالآية مع ذكر الحاصب قبلها الذى أهلك الله به أصحاب الفيل تذكيرًا من الله لقريش بتلك القصة

حتى يتعظوا أو ينتهوا عما هم فيه من الغى والضلال ، وواضح أن الآية إنما سيقت للدلالة على قدرة الله ورحمته فى الخلق إذ قال : (ما يُمْسِكُهُنَّ إلاَّ الرَّحْمٰنُ) وكأنه بقدرته خلق الطير ، وبرحمته هيّأها للحركة والطيران فى الهواء ، حتى لكأن لكل ريشة فى جناح قوةً فى حمل ما يليها من الجسم ، وبمجموع ما لها ولأخواتها من القوى وحظوظها أو أنصبتها تطير ، رحمة من الله بالطير ومنّة ، وهى رحمة تعمّ كل ما يخلقه . وحرىّ بالكفار الآثمين أن يتدبروها ويفزعوا إلى ربهم ، (إنه بكلِّ شَىءٍ بصِيرٌ) والمراد بالبصر هنا دقه العلم الذى به تنكشف الأشياء وتُعرفُ كيفية تدبير المخلوقات وإبداع المصنوعات طيرًا وغير طير . وفى ذلك إشارة إلى دوام مراقبة الله للإنسان وأن على كل شخص أن يكون دقيق المحاسبة لنفسه فعين الله من ورائه لا تخفى عليها خافية من أمره ، وإنه لجدير بالكفار أن يتدبروا فى صنع الله العجيب وما بَثَّ فيه من رحمة ولو نظروا فى أنفسهم لوجدوا فى كل جارحة من جوارحهم نعمة ينبغى أن تدفعهم لا إلى معصية الله بل إلى طاعته لكثرة ما يرون فى الطير وغير الطير من البرهان عليه والدلالة .

(أَمْ مَنْ هٰذَا الَّذِى هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِى غُرُورٍ) :

تبكيت للكفار وتوبيخ على تركهم التأمل فى الطير وغيرها من الكائنات الدالة على غرائب الخلق الإلهى وعجائبه التى كان ينبغى أن تردهم إلى سواء السبيل سريعاً ، فينفضوا عنهم الكفر والشرك ، قبل أن يقع بهم الخسف وقبل أن تنزل عليهم حجارة من السماء تأتى عليهم كما أتت على كثيرين

من قبلهم ، ولن يعصمهم من ذلك عاصم ولن ينصرهم من دون الله جند ، بل ستدور عليهم الدوائر ولا ناصر ولا عاصم . ويتساءل الله جَلَّ شأْنه عن الجند الذين سينصرونهم من دونه تهكماً وتبكيتًا . إنه ليس لهم جند ينصرونهم ، وهل فى الأَرض والسماء من جند سوى جنده كما قال فى سورة الفتح : (وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) ، فهو صاحب الجنود المجندة فى الأَرض وفى السموات ، أَو بعبارة أخرى هو وحده المدبر لأُمور المخلوقات بعزته وقدرته ، ومن جنوده ملائكة الرحمة والعذاب ، وإن شاء سلَّط الأَخيرين عليهم فكبُّوا على رءوسهم الحجارة والحصباء ، وخسفوا بهم وبدورهم وكل ما يملكون الأَرضَ . وقد يكون الله أَشار بجنود الأَرض إلى المؤمنين الذين سينصرون دينه ويُعِزُّونه ويجعلون كلمته هى العُليا وكلمة كفار قريش السُّفْلى . أَو لعل آية سورة الفتح تمثيل يصوِّر به الله أَن كل ما فى السموات والأَرض بمنزلة الجند لو شاء لانتصر به كما تنتصر الأُمم بجيوشها وجنودها فأَين تَفِرُّون من ربكم وقد أَخذتْ جنودُه عليكم كلَّ الدُّروب وكل المسالك ولم يبق إلا الاستسلام وإلا فالموت الزؤام الذى ينتظركم ولن تستطيعوا إفلاتاً منه ولا خلاصاً ، إذ لا حامى يحميكم من الله ولا ناصر منه ينصركم ، إنه العزيز القهَّار الذى ينفرد بالسلطان فى السموات والأَرض . وباطل ما تزعمونه عن آلهتكم وعما تؤمنون به من الكواكب ومن الأَوثان والأَصنام تظنون أَنها تنفعكم وهى لا تنفع ولا تضر ولا تملك من أَمرها شيئاً فضلا عن أَن تملك من أَمركم ، كما قال جَلَّ ذكره فى سورة يٰس : (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُم يُنْصَرونَ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُم وهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ) فجندهم الذين تشير إليهم الآية هم آلهتهم كما صوَّرت ذلك آية سورة يٰس وهى آلهة لا قدرة لها ولا حوْلَ ولا طَوْل ، ولا تستطيع أَن تقدم لهم أَى عون

حين ينزل بهم عذاب ، وإنهم ليحضرونه ولا يستطيعون نصرهم ولا أن يدفعوا شيئاً ، كما قال الله لهم فى سورة الأنبياء موبِّخاً مبكِّتًا : (أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِم ولاَ هُمْ مِنَّا يُصْحَبُون) إنهم آلهة عاجزون لا يستطيعون أن ينصروا أنفسهم ويردُّوا ما ينزل بهم فضلا عن أن تمنعكم منا وتردّوا عنكم ما يحيق بكم من العذاب ، وإنهم لا يُصْحَبُون منا بأى نصر، بل يصحبهم الخذلان والخسران المبين ، فكيف يقع فى خواطرهم أنها تستطيع تأييدهم ونصرهم . والله مع تهديده ووعيده لكفار قريش يصف نفسه بأنه الرحمن حتى لا ييأسوا وحتى يفزعوا إلى رحمته التى تحيط بجميع الكائنات والمخلوقات والتى تغلب على غضبه وانتقامه ، وكأنه يقول لهم إن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم يفتح لكم باب رحمتى فلا تغلقوه بكفركم وشرككم ، فتحرموا من إنعامى وإحسانى ويحقّ عليكم عذابى ، وسارعوا إلى مغفرتى وأنيبوا إلىّ وأطيعونى فإن كل ما فى السموات والأرض جند من جنودى وإن نشأ ننزل بكم عذاباً فلا منقذ ولا مغيث ولا معين . و (إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِى غُرُورٍ) أى ما هم فيما يزعمون من نصرة آلهتهم لهم وأنها تحفظهم من الكوارث والنوازل وأنها تنفعهم فى قضاء حاجاتهم وأنها تردّ عنهم بأس الله ونقمته وعذابه ، ما هم فيما يزعمون من ذلك كله إلا فى غرور أثيم وضلال عظيم ، إذ يظنون ظنًّا خاطئاً أنه لن يكون هناك معاد ولا جزاء ولا حساب ولا عقاب ولا ثواب .

(أَمْ مَنْ هٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِى عُتُوٍّ ونُفُورٍ) :

معنى الآية : بل من هذا الذى يسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ويرزقكم

فى غُدُوِّكم ورواحكم إن أمسك الله رزقه عنكم ؟ أترزقكم آلهتكم التى تعتصمون بها شيئاً ؟ إنها لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضرًّا فضلا عن أن تملك لكم . وكأن الله جَلَّ ثناؤه يقول إنهم مع كل ما يرون من آيات الحق يلجُّون ويتمادون فى العتوِّ والطغيان والعناد وينفرون من الحق ويعرضون عنه إعراضاً شديدًا . وحتى لو كان الرزق موجودًا وفى متناول أيديهم وطعم منه أحدهم وأصبحت اللقمة فى فمه وأمسك الله عنه قدرة الابتلاع لعجز أهل السموات والأرض عن أن يعيدوا إليه تلك القدرة . إن كل شىء بيد الله رزقا وغير رزق وكان ينبغى أن ينيبوا إليه ويدخلوا فى دينه ، ولكن عنادهم أعماهم فلم يذعنوا للحق وهو تحت أبصارهم ولم يؤدّوا لربهم ما يستحق من شكر وعرفان بما يرزقهم به صباح مساء . وهو يمزج ذلك بتهديدهم وبيان قدرته التى صوَّرها فى الآيات السالفة كى يرعووا ويزدجروا ويثوبوا إلى رشدهم ويعرفوا أنه الرزاق القوى الشديد القوة الذى يستطيع أن يعصف بهم ويمزقهم شر ممزق ، وإنه ليصف نفسه بذلك مرارًا كما قال فى سورة الذاريات : ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ ، فلا رازق سواه ، إنه هو الذى يهب الأرزاق الظاهرة من الأقوات والأطعمة مما يخص الأبدان كما يهب الأرزاق الباطنة من الإيمان والتقوى مما يخصُّ القلوب والأفئدة ، وفرق بين النوعين ، فالأولى قصيرة الأمد والثانية حياة الأبد . وفى الآية ما يدل على أن الله وحده الرازق وألا ينتظر الإنسان الرزق ولا يرجوه إلا منه . ويُرْوى أن شخصاً سأل بعض النُّسَّاك : من أين تأكل ؟ فقال : من خزانته ، يشير إلى قوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ ، فقال الشخص للناسك مستنكرًا : ينزل عليك الخبز من السماء ؟ فأجابه الناسك : لو لم

تكن الأَرض له لكان يلقيه من السماء . فقال السائل : إنما أنتم قوم ليس عندكم إلا الكلام ، فقال الناسك : لم ينزل من السماء إلا الكلام ، فقال وقد لزمته الحجة : أنا لا أقوى على مجادلتك ، فقال الناسك : لأَن الباطل لا يقوم مع الحق . والناسك يشير بكلمة الأَرض إلى ما مرَّ بنا من أن الإنسان يتوكل ويعمل ويلقى الحبّ فى الأَرض الطيبة لينتظر من ربه الثمرة المرجوة . والرزق عند أَهل السنة يشمل الحلال والحرام خلافاً للمعتزلة القائلين بأَن الرزق هو الحلال وحده ، أَما الحرام فليس برزق ، لأَنه لا يجوز تملكه ورتَّبوا على ذلك أَن الله لا يرزق الحرام إنما يرزق الحلال فقط . فلو نشأَ صبي مع لصوص ثم أَصبح لصًّا ، ولم يطعم إلا مما نهبوه ونهبه معهم إلى أَن مات فإن الله فى رأْيهم لم يرزقه شيئاً ، وقال أَهل السنة إن الرزق هو الغذاء مطلقاً حلالا كان أَو حراماً ، واستدلُّوا على ذلك بقوله جَلَّ شأْنه فى سورة فاطر : (هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ) فكل شىء من رزقه ، وإنه ليرزق الطير تغدو خِماصاً (جائعة) وتروح بِطَاناً (ممتلئة طعاماً) كما يرزق الحيوانات والدواب ، كما قال فى سورة هود : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فى الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُها) ويقول تبارك وتعالى : (كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ واشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ ورَبٌّ غَفُورٌ) ، وقد يكون فى ذكر الغفران فى الاية الأَخيرة ما يشير إلى أَن الرزق يكون فيه الحلال والحرام الذى يغفره الله بفضله . والرزق بذلك يشمل الحلال وهو المأْذون للإنسان به ، والحرام وهو غير المأْذون له فى تناوله ، والله كما جاء فى سورة الشورى وفى مواضع مختلفة من الذكر الحكيم : (يبسُطُ الرِّزْقَ لِمنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ) فينبغى أَن يرضى المؤمن برزقه . وليس ضيق الرزق هواناً ولا سعته تكريماً ، ولو كان

الناس سواء فى الرزق لتعطلت الحياة ولم تختلف وجوه الأعمال فيها ؛ وانظر فى رغيف الخبز وما يحتاج إليه من زارع لقمحه وحاصد وطاحن وخابز ، وكذلك كل ما يحتاج إليه الناس من الارتفاق فى أمورهم ومما هو قوت وقوام للأُمة فى شئون الاقتصاد والسياسة وفى العلوم والفنون ، فكل ميسَّر لما خُلق له ، وَكلٌّ له نصيبه وحظه من الرزق حسب عمله وحسب جهده وحسب سعيه .

(أَفَمَنْ يَمْشِى مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمْ مَنْ يَمْشِى سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) :

معنى المكبّ على وجهه منكّس الرأس الذى لا ينظر أمامه ولا يمينه ولا شماله ، فهو لا يأْمن من العثور على وجهه والانكباب على رأسه . والسوىّ المعتدل الذى يبصر الطريق فيأْمن من الخبط والعثار على غير هدى . والآية مثل للكافر والمؤمن ، فالكافر يمشى متعثرًا لا يأْمن الزلل فى كل خطوة ، لأَنه اختار طريقاً معوجًّا يكثر فيه الصعود والانحدار ، فلا يزال يتخبّط فى كل خطوة لتوعر الطريق وما يملؤه من الاعوجاجات والانحرافات . ومثله ليس أَهدى ولا أَرشد من المؤمن الذى يؤم مقصده سالماً من التخبط. والعثار فى طريق مستقيم منتظم الأَجزاء لا انحراف فيه ولا عوج ولا اضطراب ، ومهما أَصعد فيه أَو انحدر فإنه يمشى سويًّا فى اعتدال ناظرًا ما بين يديه وعن يمينه وعن شماله ، لا يتعثَّر ولا ينكبُّ على وجهه ، وكأَنما نُصبت له على الطريق كله أَعلامُ هدى وهو ما يزال ينتقل من علم إلى علم عن بصيرة ورشاد. ويجوز أَن يكون المراد بالمكب الأَعمى الذى لا يهتدى إلى الطريق ،

فيعتسفه فلا يزال ينكبُّ على وجهه ، وأنه ليس كالمؤمن السويّ الصحيح البصر السائر فى الطريق المستوى المستقيم . ويشهد لهذا المعنى ما جاء فى القرآن مرارًا من وصف الكفار بأنهم عُمْىٌ لا يستطيعون أن يهتدوا إلى السبيل النيرة كما قال جلَّ شأنه فى سورة البقرة : (خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وعَلَى سمعِهِمْ وَعَلَى أَبْصارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) ، والمراد بالخَتْم على القلوب وعلى الأسماع عدم الوَعْى بالحق سبحانه وبآياته المنزلة وعدم الفهم والانتباه لما يتلوه الرسول ، مما يدعوهم إلى التدبر فى الله والإيمان به وبرسله . وبالمثل غشاوة الأبصار فإنهم لا ينظرون بها فى ملكوت السموات والأرض نظرًا يدفعهم إلى الدخول فى الدين الحنيف ، فأصبحوا كأنهم عمى صم لا يفقهون ولا يعقلون . كما قال تعالى فى سورة التوبة : (وطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ) وليس معنى الطبع والختم على القلوب والأسماع وجعل الغشاوة على الأبصار أن الله خلقهم على هذا النمط غير مهيئين للهداية ، ولكن معناه أن الكفر قد تغلغل فى قلوبهم حتى أصبحوا لا يسمعون ولا يفقهون ما يقوله الرسول عليه السلام . كما أصبحوا لا يبصرون آيات الله الكونية ، وبذلك أغلقوا قلوبهم وأصموا آذانهم وأعموا أبصارهم ، وأوضح الله ذلك فى سورة الأعراف إذ يقول : (لَهُمْ قُلُوبٌ لا يفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسمَعُونَ بِهَا أُولِئَكَ كَالأَنْعَامِ) ، كأن قلوبهم عليها أكِنَّةٌ وأغْطية فهى لا تَعِى شيئاً مما يتلوه الرسول ، وكأن على أعينهم حجاباً غليظاً فهم لا يبصرون سوى آلهتهم وأصنامهم ، وكأن فى آذانهم وقْرا وصَمَما . فكلام الرسول لا يدخل أسماعهم ، وإن سقط منه شىء إلى قلوبهم لم يفهموه ولم يتدبروه ، وكأنما وضعوا سدادًا بينهم وبين

الرسول عليه السلام ، سداداً على أبصارهم وعلى أسماعهم وقلوبهم فلا ينفذ إليهم أى نور من أنوار الهداية والرشاد ، وكأنه لم يعد عندهم أى استعداد لكى يرشدوا ويهتدوا ، فقد ضلوا الطريق ، بل لقد اختاروا طريقاً كله عوج وانحراف وعثار ، فهم يخبطون فيه خَبْطَ عشواء . ولم يصفهم الله بالعمى والصمم والختم على القلوب فحسب ، بل وصفهم أيضاً بالإنكار وجحود القلب كما قال تعالى فى سورة النَّحل : (فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ) فقلوبهم تنكر الإيمان وهو نفس ما عبَّر الله عنه بأنه تارة ختم عليها وتارة طبع عليها ، فقد طُبعت على الكفر ولم يعد من الممكن أن يدخل نوافذها ضوء من الهدى . ووصفهم بالمرض ، فقال فى سورة البقرة : (فِى قُلُوبِهِم مرَضٌ) وتكرر هذا الوصف كثيراً للمنافقين والكفار ، وهو كناية عما فى قلوبهم من جحد وتكذيب وفساد فى العقيدة . ووصف قلوبهم بالقسوة فقال فى سورة الزُّمَر : (فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِنْ ذِكْرِ اللهِ) ، فقلوبهم قد نُزِعت منها الرحمة ، وإذا ذُكر الله لا تلين بل تزداد وتشتدُّ قساوة على قساوة ، وفى الحديث عن الرسول عليه السلام : « قال الله تعالى : اطْلُبُوا الحوائج من السُّمَحاء فإنى جعلت فيهم رحمتى ، ولا تطلبوها من القاسية قلوبهم فإنى جعلت فيهم سُخْطى » . ووصفهم بالموت وأنهم أموات غير أحياء ينغمسون فى الظلمات ، كما قال فى سورة الأنعام : (أَو مَنْ كَانَ ميْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وجعلْنَا لهُ نُوراً يمْشِى بِهِ فِى النَّاسِ كَمَن مَثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ لَيسَ بِخَارِجٍ مِنْها) فقد جعل المؤمن قبل إيمانه مَيِّتاً فأعطاه الحياة والهدى وجعل له نوراً يمشى به بين الناس ، أما المشرك الكافر فيظل فى موته وتظل الظلمات تحيط به من كل جانب ، فلا يعرف كيف يهتدى ولا كيف يسير بل يظل فى موته وفى

قسوة قلبه ومرضه وإنكاره وجحده وعماه وصممه وعدم فقهه وفهمه وتدبره ، وفى انكبابه على وجهه وعثراته المتوالية عَثْرَةً من بعد عَثْرَة .

(قُلْ هُوَ ٱلَّذِى أَنْشَأَكُمْ وجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ وَٱلْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ) :

أمرٌ من الله عَزَّ ذكره لرسوله أشرفِ الخلق أن يعرِّف الكفار قُبْحَ كفرهم مع اعترافهم بأنه هو الذى أنشأهم إنشاء بديعاً إذ خلقهم من سُلاَلَةٍ من طين ، وكوَّنهم فى بطونِ أمهاتهم عظاماً ولحوماً منضَّدة وأوصالا وعروقاً وأعصاباً مركبة وصوَّرهم فأحسن صورهم ، وأودع فيهم من الملكات والمشاعر والقدرات ما نيط به جميع حاجاتهم وكمالاتهم . وجعلهم أنموذجاً لجميع مخلوقاته فى جمال الصورة وامتداد القامة واعتدال الخلقة وحسن التقويم . ولا يقدح فى ذلك قبح بعض الصور أو بعض الخلق بالقياس إلى بعض ، فالجمال فى الخلق على مراتب تتفاوت . وليس المفرط فى الجمال بأدل على الخالق من ناقصه ، فجمالهما فى الدلالة سيان ، وربما فاق جمال الخصال والروح جمال الصورة والجسد ، بل لا ريب فى أن الجمال المعنوى يتفوق على الجمال المادى . وقد خلق الله آدم على صورته أى فى الصفات والخصال العليا . ويقول الله إنه جعل للكفار كما جعل للمؤمنين (السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ والْأَفْئِدَةَ) ومعروف أن السمع والبصر أهم الحواس ، أما (السمع) فيدرك به الإنسان من كل ما يحيط به من الجهات الست فى النور وفى الظلام الأصواتَ والكلام . وهو من النعم الكبرى إذ به يفهم الإنسان عن غيره ويؤدى إلى قلبه ما سمعه ، وكأن

السمع رسول أو ترجمان ، وبه وعن طريقه يسمع الناس الرسل ويهتدون بهديهم ويسعدون فى دنياهم وآخرتهم ، ولذلك فضَّله بعض الأسلاف على البصر . وبه متاع السماع من شدو الطير وغناء البلابل وأنغام الموسيقى ، وكل ذلك سماع ظاهر، وبجانبه سماع باطن لدلالة الموجودات وما تنطق عنه ألسنتها من وحدانية الله وقدرته البالغة . وأما (الأبصار) فيدرك بها الكفار كما يدرك المؤمنون الأجسام والألوان والهيئات ، ويدركون بها آيات الله فى الكون وخلقه العجيب وما فيه من دقائق الحكمة الإلهية وعجائب التدبير الربانى وغرائبه ، ويدركون أيضاً بها الجمال المنتشر فى الوجود وما يُشِعُّه فى النفس من المتاع . ثم (الأفئدة) وهى القلوب والعقول كما قال تعالىٰ فى سورة الفرقان لرسوله : (كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ) أى قلبك وعقلك وموضع فكرك . وأشار الله مرارًا وتكرارًا إلى ما بين القلوب والأفئدة والعقول من جهة وبين السمع والبصر من جهة ثانية من علاقات وثيقة إذ قرنها بعضها إلى بعض فى كثير من الآيات ، وكأن من لا يستخدم فؤاده وقلبه فى التفكير يلغى سمعه وبصره ، إذ هما المنفذان الكبيران لموارد الفكر سواء ما اتصل من ذلك بالشرائع السماوية أو بالآيات الكونية . والقلب موطن المعانى المتصلة بالروح والأخرى المتصلة بالمعرفة والعلم ، وقال بعض الزهاد : للقلب حياة وموت وصحة وسقم ويقظة ونوم ، فحياته الهدى وموته الضلالة وصحته الصفاء ومرضه النسيان ويقظته الذكر ونومه الغفلة . وعَدَّ كثيرون من النساك فكرَ الفؤاد فى الكون مثل العبادة بل لعله يفوقها ، حتى زعم بعضهم أنه فوق التسبيح والتهليل وتلاوة القرآن وطول الانتصاب فى الصلاة ، وهى مبالغة مسرفة ، فالله قد دعا إلى استخدام القلوب والأفئدة

والنظر فى الكون وملكوته لا ليختار الناس ذلك على العبادة ، وإنما ليعبدوه حق عبادته وليؤمنوا برسوله ورسالته التى تكفل لهم السعادة فى الدارين . ولن يكون لفكر أو نظر فى الكون من إشعاعات حقيقية فى القلب تستمد من الهداية الربانية ما لم يقترن النظر والفكر بالعبادة وبأداء الفرائض الدينية . وبدون ريب من وظائف الأفئدة والقلوب التفكر فى ملكوت الله وجماله وجلاله وكماله ، ولكن ذلك لا يُنْسى المرء ما فرض عليه من عبادته وفرائضه ، بل إن الفرائض والعبادة من شأنهما أن يجعلاه دائماً بسبب من الله والتفكير فيه وفى الوجود تفكيرًا يزدوج فيه عمل الجوارح فى العبادة بعمل القلب وإخلاص المشاعر ، وبذلك تصبح العبادة اشتراكاً بين الأفئدة والجوارح ، ولا تكون عملا للأجساد فحسب ، بل تكون أيضاً عملا للأفئدة والقلوب . والله جلَّ ثناؤه يطلب من الكفار أن يستخدموا أبصارهم وأسماعهم وأفئدتهم فيما خُلقت له ، وأن يعرفوا لربهم نعمة خلقهم وإنشأهم وما أنعم به عليهم من حواسهم وقلوبهم ليؤدوا له شكره بإيمانهم به وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . ويسجِّل عليهم أنهم مع كل ما أعطاهم من هذه النعم قليلا ما يشكرون ربهم بحيث ينتفعون بأسماعهم فى الاستماع الحسن لآيات الذكر الحكيم ، كما ينتفعون بأبصارهم فى النظر إلى الكون ومشاهده العجيبة ، وينتفعون أيضاً بأفئدتهم فى التفكير فى الوجود انتفاعاً من شأنه أن يسارعوا إلى الدخول فى دين الله . وكلمة (قليلا) قد تعنى قلة الشكر ، وقد يكون المراد بها فى الآية العدم أى أنهم لا يشكرون الله مع ما أسبغه عليهم من نعم أىَّ شكر لا قليلا ولا كثيرًا ، لما تمادوا فيه من الغىِّ والكفر والضلال .

(قُلْ هُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى الْأَرْضِ وإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) :

هذه الآية وما سبقها من الآيات حتى الآية الثالثة من السورة إنما جاءت لإثبات ما قاله الله فى الآية الثانية من الابتلاء للناس فى الدنيا حتى يرى أيهم أحسن عملا من صاحبه فيجزيه الجزاء الأوفى . وكأن كل الآيات بين هذه الآية والآية الثانية إنما جاءت لإثبات الدلائل على قدرة الله وصحة الحشر والنشر. و (ذرأكم) : كثّركم ونشركم على وجه الأرض ، ومن هذا المعنى كلمة الذرية لنسل الناس صغارًا وكبارًا . والحشر : البعث والمعاد ، وكأنه يقول إن من خلقكم ابتداء يستطيع أن يعيد خلقكم مرة ثانية وينشئكم خلقاً جديدًا كرة أخرى ، وقد كرّر الله هذا المعنى فى القرآن كثيرًا من مثل قوله فى سورة الأنبياء : (كَما بدَأْنَا أَوَّل خَلْقٍ نُعِيدُهُ وعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) وكان كفار قريش يجادلون الرسول كثيرًا فى البعث ، وكانوا يقولون أبعد أن تفارق أرْواحنا أجسادنا ونصير تراباً نرجع إلى الحياة ونبعث من القبور ؟ إننا لا نستطيع أن نؤمن بذلك ولا أن نصدقه ؛ ومن أجل هذا ألحّ القرآن والحديث النبوى على إقناعهم به بمختلف الأدلة والبراهين العقلية ، ومر بنا فى سورة الرحمن أن البعث سيكون بالأرواح والأجساد جميعاً ، غير أن بعث الأجساد وكيفيته مما اسْتأثر الله بعلمه ، وعلينا أن نؤمن به لأن ما يقال من تحلل الأجساد لا يحول بين الله وبين إعادة الخلق كما مرّ بنا فى السورة آنفة الذكر . وجوّز بعض الأسلاف أن تكون الأجساد المبعوثة مخالفة لأجسادنا لما جاء فى الأحاديث من أن أهل الجنة يكونون شباباً مُرْدًا وكذلك ما جاء عن النساء

من أنهن يكنَّ حورا عيناً أو كالحور العين . ومعروف أن النشأة الأولى أوجدها الله تعالى على غير مثال سابق وركَّبها فى صور متنوعة كما شاءت إرادته ، وبالمثل يمكن أن تكون النشأة الثانية فى مثال آخر غير مثال النشأة الأولى ، وأن يكون مثل قوله تعالى فى الآية السالفة : (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ) يشير إلى أن النشأة الثانية ستكون مثل النشأة الأولى على مثال لم يُسْبَق ، مع كونها محسوسة ، كما يشهد بذلك ظاهر آيات الذكر الحكيم والحديث النبوى ، وليس من الضرورى إذن أن تكون الأجساد التى يعيدها الله جَلَّ شأنه هى نفس الأجساد الأولى أو هى نفس أجساد الدنيا الفانية . وفى الحديث أن كل ابن آدم يأكله التراب إلا العَجْب (أى العُصْعُص وهو أسفل الصُّلْب آخر فقار الظهر) منه خُلق ، وفيه يُرَكَّبُ ، وكأنه بذر لجسد ابن آدم ، فمنه خُلق ، ومنه يُعاد خلقه ، وقيل إنه قدر ذَرة أو خردلة يبْقَى من البدن ولا يبلى . وقيل إن العجْبَ المذكور فى هذا الحديث ليس على حقيقته وإنما هو مجاز عن النفس وعليها تنشأ النشأة الآخرة ويمكن أن يقال إنه على نحو ما يتكوّن شجر كثير الأصول والأغصان من حَبَّات صغيرة تطرح فى التراب ، بالمثل جسد الإنسان يتكون من حَبَّة العَجْب الذى لا يقبل البِلَى ، لأنه مادتها وعنصرها . وقيل المراد بالعجب الجوهر الفرد والجزء الذى لا يقبل البِلى والفناء ، فتظل له قابلية الصورة الإنسانية ، ويبقيه الله عاصماً له من التغير والبِلى فى عالم الكون والفساد ، حتى يعيد عليه النشأة الثانية ، فإذا الناس كفارًا أو غير كفار محشورون وإذا هم قيام ينظرون . ودائماً يكرر القرآن على الكفار أن الأرض يموت زرعها وتموت نباتاتها ثم تدب فيها الحياة ثانية ،

وأن الله لن يعجزه أن يحيي الإنسان ثانية ،كما يحيي الأرض بعد موتها وهمودها وبعد أن تذوى فيها الحياة ويُنْشب الفناء أظفاره ، فإذا هو معروض على ربه ليلقى جزاءه وما يستحقه من عقاب أو ثواب ومن جحيم أو نعيم .

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ) :

حَكى الله فى هذه الآية عناد الكفار واستهزاءهم بالرسول عليه السلام وبأصحابه وأنهم يقولون لهم متى الحَشْر ومتى يوم الساعة ومتى ما تَعِدون من القيامة ومن العذاب (إنْ كُنتُمْ صَادِقِين) فيما تنبئُون من مجىء الساعة والحشر . وقد سُمِّى يوم الحشر بالساعة تشبيهاً بالساعة الزمنية وهى الجزء القليل من زمن اليوم للدلالة على سرعة الحساب كما قال تعالى فى سورة الروم : (وَيوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ) والأولى القيامة والثانية الزمن أو الوقت اليسير . وجاء فى القرآن وفى الحديث ما يدل على قرب الساعة ففى القرآن أول سورة القمر :. (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ) وفى الحديث أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم خطب وقد كادت الشمس تغيب ، فقال : « ما بقى من دنياكم فيما مضى إلا مثل ما بقى من هذا اليوم » ويُرْوَى أيضاً أنه خطب يوماً فقال : «بُعثت أنا والساعة كهاتيْن» وأشار بالسبابة والوسطى من أصابعه الشريفة ، أراد بذلك مزيد القرب بين مبعثه والساعة فإن السبابة تقرب من الوسطى طولا ، وعنه عليه السلام أنه قال : « إن الله جعل الدنيا كلها قليلا ، فما بقى منها قليل من قليل ، ومَثَلُ ما بقِيَ مَثَلُ الغَدير شُرِب صَفْوه وبقى كدره » . وللمفسرين كلام طويل فى أشراط الساعة وعلاماتها ، وكُتبت فى ذلك مؤلفات مستقلة ، وهنا وهنالك

obeikandi.com

نجد استدلالات على تعيين قرب زمانها بآثار وأخبار لا تخلو من نظر ، وأفرد السيوطى لذلك رسالة ، زعم فيها أن الساعة تقوم بعد نحو ألف وخمسمائة سنة من الهجرة . وكل ذلك لا يقوم عليه دليل سواء تحديد زمن قيامها أو تحديد علامات هذا القيام ، لأنه جميعه من باب الظن والتخمين ولا يقوم عليه دليل من الوحى والحديث الصحيح . ومن الغريب أنهم حين عرضوا لزمن قيام الساعة عرضوا أيضاً لعمر الدنيا بأسرها ، فمن قائل إنها ثلثمائة وستون ألف سنة ، ومن قائل إن آدم حين نزلها تمثَّلت له قائلة : يا آدم جئت وقد انقضى شبابى وكان قد انقضى من عمرها ستون ألف سنة ، وقيل : بل عمر الدنيا سبعون ألف سنة ، وقيل : بل ستة وثلاثون ألفاً ، وزعم بعض من يعرفون حساب الجُمَّل أن الساعة تقوم بعد ألف وأربعمائة وسبع سنين أخذًا من قوله تعالى فى سورة الزخرف : (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً) وقوله فى سورة الأعراف : (لاَ تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً) بناء على أن عدة حروف كلمة (بغْتَة) بحساب الجُمَّل الكبير – كما قَدَّر هذا الحاسب – ألف وأربعمائة وسبع . ولا ينبغى لعاقل أن يعتدَّ بمثل هذه الأوهام . وينبغى أن نعرف أن غرض القرآن والحديث من بيان اقتراب يوم الساعة تحذير الناس وحضهم على طاعة ربهم قبل أن تأزف الآزفة ، ولا شك أن كل آت يأتى به الغد مهما بَعُدَ حدوثه قريبٌ وإن طالت مدته ، وما متاع الحياة الدنيا وما زمنها بالقياس إلى الله إلا قليل . أما تعيين وقت قيام الساعة فقد انفرد الله تعالى بعلمه كما ستذكر الآية التالية وقد أخفاه عن الناس ، حتى تنتظم مصالحهم ، وحتى تجرى حياتهم على وجهها إلى أن يرِثَ الأرض ومنْ عليها ، ولا تبقى فيها لكائنات باقية . وإذن فكل ما قيل عن زمن قيام الساعة وعن علاماتها وأماراتها لا ينبغى لأحد أن يهتم به أو يعوِّل عليه .

(قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ) :

أمر للرسول عليه السلام بأن يقول للكفار حين سألوه هازئين عن موعد الساعة بأن العلم بوقته (عند الله) وحده المدبر للكون الذى لا يَعْزب عن علمه شيء فى السموات ولا فى الأرض ولا فى الحاضر ولا فى المستقبل ، فهو الذى يعلم الغيب وكل مالا تدركه حواسنا . وهو غيب بالقياس إلينا ، أما بالقياس إليه فلا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء ولا فى ضمير الغيب القريب أو البعيد ، بل يحيط بكل الأشياء على السواء الحاضر منها وما يخبئه الغيب ، إذ هو مدبر كل شيء فوجب أن يكون عالماً بكل شيء . وقد وصف نفسه بالعلم مرارًا وتكرارًا فى القرآن كما قدمنا فهو العالم والعليم بكل شيء وهو العالم وحده بغيب السموات والأرض ، إنه صاحب العلم كله ، علم ما كان وما يكون وما هو كائن . وكأن الغد كله وما فيه من غيب سجلّ مفتوح أمامه سُجِّل فيه كل ما يحدث فى العالم ، إنه المهيمن المسيطر عليه وكل ما يجرى وسيجرى فيه لا يغيب عنه شيء منه ، وإنه ليعلم كل ما سيقع كما نعلم نحن ما نشاهده بأعيننا ، إذ المستقبل كالحاضر والماضى عنده ، بل إن هذه الحدود الزمنية إنما هى بالقياس إلى الإنسان ووجوده وحياته ، أما بالقياس إلى الله فتلك الحدود حدود وهمية ، إذ الكلّ عنده زمان ممتد أمام علمه القديم الأزلى ، وقد مثّل هذا العلم تقريباً لنا كأنه كتاب مدوَّن فيه ما كُتب على الناس أو بعبارة أدق ما يكسبونه من خير ويكتسبونه من شر ، وهى كتابة ليست بقلم ولا مداد ولا فى صحف أو فى ألواح ، فالله جَلَّ شأنه منزَّه عن كل هذه الوسائل التى يستخدمها الإنسان لعلمه ، ضرباً

من قصور علمه عن علم ربه الذى وسِعَ علمه كل شيء ، والذى يرتفع علمه عن كل تكييف ، علماً يعلم به كل شيء مما خلق كما يعلم وجوده ومصيره .

وقد اضطرب كثير من السابقين إزاءَ تصوير القرآن لهذا العلم حين يتعلق بهدى الناس وضلالهم ، فظن الجَبْريَّة أنهما مكتوبان على الإنسان ولا يستطيع من كُتب عليه الضلال أن يصبح من أهل الهدى ، وتصوير القرآن لذلك إنما هو لبيان علم الله ، وهو علم لا يقتضى الجبر ولا الإلزام ، فللإنسان استطاعته التى تهديه إلى طريق الخير أو تنصرف به عنه إلى طريق الشر .

ومهما يكن فالغيب كله لله لا يعلمه سواه ، وقد استأثر لنفسه بمعرفة الساعة وموعدها المحدَّد ، فليس لأحد من علمه شيء رسولٍ أو غير رسول ، وإنه ليقول للرسول الكريم فى سورة النازعات : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا) فقد سأل الكفار الرسول عليه السلام متى يُرْسِى الله الساعة ويقيمها ويثبِّتها ، فقال الله له وكأنه يوَنِّبهم على إلحاحهم على رسوله أن يعرفوا منه زمنها : (فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاها) وهو رَدّ وإنكار لسؤال الكفار أى فى أى شيء أنت من ذكر وقتها لهم كما قال له فى سورة الأعراف : (يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عنها قُلْ إِنَّمَا عِلْمُها عِنْدَ اللهِ) وحَفِيٌّ مهتم بها وعالم بأمرها ، والله وحده عنده معرفة موعدها وانتهاء علمها وتحديد وقتها ، فما بالهم يكثرون من سؤالك عنها ، وتعيين وقتها ليس من عملك ، فما أنت إلا رسول منذر مبين عن قرب وقوعها ، تذكِّرهم بها وبأهوالها ، وتنذرهم بما سيكون وراءها من عقاب وعذاب ، فمهمتك إيصال الوعيد بأنها طامة كبرى وداهية عظمى ، وقارعة تقرع الأسماع والأفئدة ، فإذا كل ما قدمه الإنسان فى دنياه محسوب عليه

فمن عبد آلهة مثلكم غير الله وتمرد على طاعته ولم يؤمن برسوله ورسالته كانت الجحيم مأواه ، ومن آمن بالرسول ورسالته وعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً وأسلم وجهه لربه وكبح الهوى فى نفسه كانت الجنة مثواه . ومرت بنا فى سورة الرحمن صور العذاب الهائلة التى تنتظر المشركين فى اليوم الآخر والتى ظل القرآن يعرضها حتى تقشعرّ جلود الكفار ويرعووا عن غَيِّهم ويزدجروا عن كفرهم وعصيانهم ، فمن تصوير للحشر وأهواله إلى تصوير للحساب وموازينه إلى تصوير للجحيم ودركاتها ووقودها من المشركين الآثمين إلى ما ينتظرهم فيها من طعام الزقوم الذى يغلى فى بطونهم كالنحاس المذاب ، إلى شراب الحميم الحار الذى يقطِّع أمعاءهم ، وهم يتضورون ألماً وعطشاً وجوعاً ويصيحون ولا منقذ ولا مغيث ، فالنار تأخذهم من كل وجه ، وكلما احترقت جلودهم بُدِّلوا جلوداً غيرها ، يعاد خلقها لكن تحترق من جديد ، حتى يظلوا فى الألم وفى العذاب الشديد . وتلك هى وظيفة الرسول أن ينذر الكفار وأن يصور لهم أهوال الحشر والحساب والعذاب حتى يتداركوا موقفهم وينيبوا إلى ربهم ويفوزوا برضوانه ، أما إذا ظلوا فى غيهم وبغيهم وكفرهم وعنادهم فإن مصيرهم إلى الجحيم ونيرانها الحامية ، والموعد الحشر وقيام الساعة ، وإنه لقريب .

(فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ) :

تصوِّر الآية الكفارَ المكذبين ليوم الدين وأنهم حين يرون الوعد والحشر (زُلْفَةً) قريباً منهم تسود وجوههم وتعلوها الكآبة وغبرة المذلة والهوان . وعبَّر

الله بالفعل الماضى للدلالة على أن هذا التصوير سيحدث يقيناً حين يُحْشَرُون ويرون عملهم السَّيئ فتظهر حينئذ على وجوههم سمات كُفْرهم وشِرْكهم بالله وعِصْيانهم ، ويبدو عليها الكدر والعبوس والسواد كما قال الله تعا فى سورة آل عمران : (يَوْمَ تبْيَضُّ وجُوهٌ وَتَسْودُّ وجوهٌ) وهو يوم الحشر تستبشر وتبيضُّ وجوه المؤمنين وتبتئس وتسود وجوه الكافرين . ذلك إنما يكون عند الحساب فمن رجحت حسناته ابيضَّ وجهه ومن رجحت سيئاته اسودَّ وجهه ، أما المؤمنون فتصير وجوههم مثل الثلج بياضاً ، وأما الكافرون فتصير وجوههم مثل الفحم سواداً . وقيل : بل البياض والسواد والسوء كل ذلك مجاز ، أما بياض الوجوه فالمراد به إشراقها بالنعيم فهى متهللة بما ينتظرها من ثواب ، وأما سواد الوجوه فالمراد به إرهاقها بالألم والبؤس ، فهى مكتئبة لما ينتظرها من العقاب ، وهى لذلك شديدة العبوس كالحة متجهمة لما تتوقع من أهوال العذاب . وكل ذلك وعيد من الله وإنذار للكفار حتى يُقْبلوا على ما عنده ويسعدوا فى الدنيا والآخرة ، غير أن قلوب فريق منهم ، وهم الذين تمادوا فى كفرهم وشركهم ، كانت قاسية بل كانت أشد قسوة من الحجارة فإن من الحجارة ما يتشقق بالخير ماء وغير ماء ، أما قلوبهم فأصبحت كالصخر لا ينبجس منه ماء ولا خير ولا يرجى منه صلاح ولا نفع ، وكأنما كتبوا بأيديهم شقاءهم وحرمانهم من رحمة الله ومغفرته ، فاستحقوا عذابه الأليم ونار الجحيم . ويسألهم زبانية جهنم أو يسألهم لسان حالهم استهزاء بهم وتوبيخاً لهم : (هٰذَا الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تدَّعُونَ) وكلمة (تَدَّعُونَ) إما من الدعوى أى كنتم به تدَّعون من الأباطيل وأن لا بعث ولا حشر ولا عذاب ، وإما من الدُّعاء ، وهو الاولى ، أى تستدعونه وتطلبونه فى دنياكم وتتمنَّونه كما حكى الله عنهم فى سورة

الأنفال من قولهم فى الذكر الحكيم حين كان يتلوه عليهم الرسول عليه السلام : (وإذْ قَالُوا اللهُمَّ إنْ كَانَ هٰذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمطِرْ علَيْنَا حِجارةً مِنَ السَّماءِ أوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) ، قالوا ذلك استهزاء وإمعاناً فى العناد والجحود حتى ليتمنون العذاب فى الدنيا وأن ينزل عليهم حاصب من السماء كما نزل على أصحاب الفيل . وقد تحققت لهم أمنياتهم فى الآخرة وأصبحت حسرة لهم ، وإنهم ليندمون بعد فوات الأوان على ما كانوا يرددون من هذا القول الذى يوشك أن يطوق أعناقهم بالسلاسل والأغلال . ويحكى الله عنهم فى سورة صٓ أنهم كانوا يتجهون إليه بالدعاء قائلين : (رَبَّنَا عَجِّلْ لَنا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الحِسَابِ) والقِطُّ الجزاء ، وقيل النصيب من العذاب ، وقيل : بل النصيب من الثواب ، كانوا يقولون ذلك استهزاء بما كان يتلوه عليهم الرسول عليه السلام من مثل قوله تعالى فى سورة الانشقاق : (فَأَمَّا مَنْ أُوتِى كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيرًا وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا وأَمَّا مَن أُوتِى كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا وَيَصْلَى سَعِيرًا) إذ كانوا يستعجلون الرسول تلك الكتب ويسألونه أن يأخذوها فى دنياهم وأن يُمَثِّل لهم رَأْىَ العين منازلهم فى النعيم والجحيم ، حتى يعجِّل لهم أرزاقهم وحتى يتيقنوا من حقيقة ما يوعدون به ، وبلغوا من عتوهم أن كانوا يتوجهون بذلك إلى الله رب محمد يدعونه أن ينزل بهم الثواب أو العذاب . وكأنه يقال لهم إن هذا الذى كنتم تطلبونه فى الدنيا وتستعجلونه إنكارًا وسخرية قد أصبح واقعاً لا تستطيعون منه فرارًا ولا خلاصاً .

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) :

معنى (أَرَأَيتم) أخبرونى وأنبئونى ، تهديدًا ووعيدًا . وكان كفار مكة

يدعون على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالهلاك ، وكانوا يقولون كما حكى الله قولهم فى سورة الطور : (شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المَنُونِ) والتربُّص : الانتظار و (ريْبَ المَنون) : صروفه ، والمنون ، كما هو معروف ، الموت . كانوا يقولون ننتظر به نوائب الدهر وصروف الموت فيهلك كما هلك غيره من الشعراء فى العصر الجاهلى أو ننتظر به الموت السريع ، فقد يموت ، كما مات أبوه ، شابًّا . وهى أمنية سخيفة كأمنية الأطفال فى الكُتَّاب أن يموت معلمهم ، وأى أطفال ؟ الأطفال البلداء الأغبياء الذين لا يقدرون التعليم ولا الخير ولا الرشد ، ومثلهم كفار قريش الذين كانوا يتمنون الهلاك والموت لرسولهم ومعلمهم ومنقذهم مما كانوا فيه من وثنية ومما كانوا يرهبونه من آلهة خرافية وما كانوا يعانونه من جهالة وهمجية وانحطاط فى الفكر والروح والخلق . وقد أمر الرسول فى الآية الكريمة بأن يقول لهم نحن مؤمنون بالله وننتظر منه إحدى الحُسْنَيَيْن إما أن نهلك ونموت كما تتمنون فننتقل من تلك الدار الفانية إلى الدار الآخرة ونفوز بما وعدنا به من جنَّاته ونعيمه ، وإما أن يرحمنا فيطيل آجالنا ويسبغ علينا النصر للدين الحنيف وتصبح كلمته هى العليا . أما أنتم فمن يجيركم وينجيكم من عذاب النار ، إنكم تطلبون لى ولصحبى الهلاك كما تظنونه ، وهو ليس بالقياس إلينا هلاكاً ولا موتاً ، بل هو فوز وسعادة ، وكأنكم تستعجلونهما لنا من حيث لا تدرون . أما أنتم فقد أحاط بكم هلاك محقق لا هلاك مثله ، وتمادون فيه كأنكم عميتْ أبصاركم وصمت آذانكم وقام بينكم وبين الهدى حجاب ، إنكم غافلون استبدت بكم الغفلة واستبد الشرك والعناد ، وها هو ذا عذاب الله منكم قابَ قوسين أو أدنى وأنتم لا تتدبرون أمركم ولا

تطلبون الخلاص . وكأن الله بذلك يحثهم فى قوة على المسارعة إلى الدخول فى دينه حتى تكتب لهم النجاة ويكتب لهم الفوز فى الدارين . وقيل إن معنى الآية أن الله تعالى إن أهلكنا بالموت ونحن هداتكم فمن يجيركم من النار؟ وإن رحمنا بالغلبة عليكم عكس ماتتمنون فمن يجيركم ؟ إن المغلوب على أيدينا هالك فى الدنيا والآخرة . وقيل إنَّ المعنى إنْ أهلكنا الله فى الآخرة بذنوبنا كما تدَّعون فمن يجير الكافرين وهم بالهلاك أولى ؟ وإن رحمنا بالإيمان فمن يجير من لا إيمان له ؟ وقد ذكر الزمخشرى المعنيين الأخيرين بجانب المعنى الأول ، وهو أولى لما فيه من تسفيه أمانيهم وأنهم يطلبون ما فيه سعادة الرسول وصحبه دون أن يدروا ، وأيضاً لما فيه من حثهم على النجاة مما أحاط بهم من هلاك وبوار ، وكل ذلك مما يرجح المعنى الأول ، ولاريب فى أنه أكثر التئاماً مع السياق وأشد ارتباطاً به واتساقاً ، وتوثقاً والتحاماً .

(قُلْ هُوَ الرَّحْمٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ) :

كأن هذه الآية الكريمة إجابة ثانية عن تمنى الكفار مالا يجديهم من هلاك الرسول عليه السلام وأصحابه . وهى تعريض واضح بهم وأنهم يؤمنون بما لاينفعهم فى الدنيا والآخرة ، أما الرسول وأصحابه فيؤمنون بالرحمن صاحب الالاء والنعم على الناس جميعاً ، وإنها لنعم وآلاء تشمل الرسول ورفاقه فى الآخرة ، إذ سينجيهم من عذاب النار يوم لا يجير الكافرين ولا يخلصهم منها أحد . وهم لا يؤمنون بالله فحسب ، بل أيضاً يتوكلون عليه ويفوضون أمورهم إليه خاصة دون غيره ، ونعم الوكيل . ومرَّ بنا فى تفسيرنا للآية : (هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ) حديث عن التوكل وأنه إنما يكون بعد العمل وبعد الحركة فى طلب المعاش

كتوكل الزارع بعد إلقاء الحبِّ فى الأرض ، ونزيده الآن بياناً ، لدخول الشبهة فيه على بعض الناس لقوله تعالى فى سورة الذاريات : (وَفِى السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ) وليس المراد بالرزق فى الآية الرزق بالمعنى العام وإنما المراد المطر بإجماع المفسرين كما قال تعالى فى سورة غافر : (وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقاً) ولم يحدث أن نزَلَ من السماء خبز ولا طعام ، بل لا بد من العمل واتخاذ الأسباب حتى يمكن للمرء الحصول على الخبز والطعام ، وفى الحديث : « اطلبوا الرِّزْقَ فى خَبايا الأَرْضِ » أى اطلبوه بالحرث والغَرْسِ والزرع ، وفى سورة الفُرْقان : (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى الأَسْوَاقِ) واتفق المفسرون على أن المعنى أنهم يتَّجرون ويحترفون ، والآية تقرِّر أن طلب المعاش إنما يكون بالأسباب وبالتجارة والصناعة والزراعة . فالتوكل على الله لا يعنى القعود عن العمل ، أما ما يُحْكَى عن بعض النساك من أنه كان لا يعمل عملا أو أنه كان إذا حَجَّ لم يحمل معه مالا ولا شيئاً من زاد أو طعام فإن ذلك ليس من التوكل القويم الذى دعا إليه الإسلام ، إنما دعا إلى الثقة بالله لا غير ، أما بعد ذلك فيعمل المتوكل ، ولا يعرِّض نفسه للحاجة وذلّ السؤال ، وفى الحديث : « لأن يأْخذ أحدكم حَبْله فيحتطب على ظهره خير له من أن يسأل أحدًا أعطاه أو منعه » ولم يُنْقَلْ لا عن الرسول عليه السلام ولا عن أصحابه أنهم خرجوا فى أسفارهم بغير زاد ، وهم فى الذروة من التوكل على الله . وفى صحيح البخارى أن أهل اليمن كانوا يحجّون ولا يتزوّدون ويقولون نحن المتوكّلون ، فإذا قدموا سألوا الناس ، فأنزل الله تعالى : (وتزوّدوا) . فلا بد مع التوكل من اتخاذ الأسباب والوسائط ، سنة الله فى أنبيائه وفى

الحياة وسنة رسوله ، وسنة السلف الذين كانوا يقولون اتَّجروا واكتسبوا واتَّكِلُوا . وهذا هو التوكل الحق ، توكل على الله واعتماد عليه وتناول للأسباب، أما ما يُرْوَى عن أهل الصُّفَّة الذين كانوا ينزلون فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وينسكون ولا يعملون فليس ذلك بصحيح ، إذ كانوا ضيوف الرسول يؤاكلهم وكانوا يحتطبون ويسوقون الماء إلى بيوته ، بذلك وصفهم البخارى وغيره . فالتوكل الصادق الذى انعقد عليه الإجماع لا بد أن يرافقه العمل ولا بد أن تصحبه الأسباب ، أما التوكل الذى يعنى إظهار العجز والاعتماد على الغير وما فى أيدى الناس فليس من التوكل الحق فى شىء . ويقول الرسول بأمر ربه للكفار إننا آمنا بالله إيماناً صادقاً وتوكلنا عليه توكلا حقًّا ، وستعلمون (منْ هُو) منا أو منكم (فِى ضَلالٍ مُبِينٍ) فى الدارين . وهو إخبار لهم بأنهم ضلوا سبيل الهدى على طريقة واضحة من الإنصاف ، فقد استبان أنهم غارقون فى الضلال ؛ وهو كقول المؤمن بصحة كلامه لصاحبه : أحدنا كاذب ، وقد علم أنه الصادق الذى لا يرقى إلى صدقه شك وأن صاحبه كاذب دون امتراء ، وفى ذلك إلزام للحجة بأبلغ أسلوب وأرفعه .

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ) :

يقول الله جلَّ ثناؤه لرسوله قل لهم أخبرونى يا معشر قريش إن غار ماؤكم فى بئر زمزم وبئر ميمون ولم تعودوا تنالونه بأيدكم ولا بالدِّلاء (فمنْ) غير الله (يَأْتِيكُمْ بِماءٍ معِينٍ) أو بماءٍ جارٍ . وهو بيان لنعمه على الناس وأنه كان ينبغى على الكفار أن يكون مثلهم مثل المؤمنين فلا يجحدوه

بل يشكروه ويحيلوا شكرهم له عبادة ونسكاً . وخَصَّ الماء من بين نعمه بالذكر ، لأنه أعز مفقود وأهون موجود ، وهو من أعظم نعم الله على الإنسان ، وفيه يقول فى سورة الأنبياء : (وجعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كلَّ شىء حىٍّ) فليس حى من الإنسان والحيوان والنبات إلا وفيه ماء أو خُلق من ماء أو أصابه ماء . والنُّطفة ماء ، يقول جَلَّ ثناؤه فى سورة الفرقان : (وهو الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجعَلَهُ نَسَباً وصِهْرًا وكَانَ رَبُّك قَديرًا) . والماء طَهُور الأبدان ، يقول الله فى نفس السورة : (وأَنْزَلْنَا مِن السَّماء ماءً طَهُورًا) يطهِّر كل شىء . وقد سماه الغيث فى مثل آية لقمان : (وينزِّل الغَيْثَ) لأنه يُغيث به الخلق بعد قنوطهم ويأسهم من السماء . وهو يُشْرَبُ صِرْفاً خالصاً وممزوجاً وكل شراب سواه لا يشرب بدونه ، ويدخل فى كل الأطعمة ، ومهما بلغ الطعام والشراب من الطيب فإن اللذة بهما لا تكمل للشارب والطاعم إلا بجرعات منه ، وبه يغسلان فمهما لينظفاه ويطيِّباه ، إذ هو العذب الفُرات السائغ الوحيد . وإنه لدواء وشفاء وإن جرعة منه لذى الغُصَّة وكذلك لذى الغُلَّة العطشان لا يعدلها شىء فى الدنيا ، ويقول جلَّ شأنه لكفار قريش فى سورة الواقعة : (أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْربُونَ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَم نَحْنُ الْمُنزِلُونَ لَو نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلاَ تَشْكُرُون) والمزن السحاب، ومعروف أن المطر ينعقد من مياه البحار الملحة ، يصعد فى السماء وينزل عذباً بقدرة الله .وقد ذكر الله فى آيات مختلفة تذليله البحار للإنسان كى يُجْرى فيها سفنه وتحدَّث فى آيات كثيرة عن نعمه وآلائه فيما أنزل من السماء من غيث وشقق فى الوديان والصحارى من آبار وعيون حتى لكأن الماء يقوم من الأرض مقام الغذاء ، غذاء يشفى القلوب الكليمة والنفوس الجريحة .